

سلسلة
الأدب

القراءة للجميع

٢٠٠٥

مكتبة الأمانة

خمسة عشر حركاً أنزلياً

انطونيو جالا

ترجمتها وقدم لها

أبو همام

عبد اللطيف عبد الحليم

توزيع : هنا سور الأنبياء
أكبر مكتبة رقمية





خمسة عشر حركتك الألفية

انطونيوجالا

ترجمتها وقدم لها
أبو همام
عبد اللطيف عبد الحكيم

تجميعاً من أكبر مكتبة هنا سور الألفية
300000 كتاب



برعاية السيدة
وزراء مبارك

المشرف العام	الجهات المشاركة:
د. ناصر الأنصارى	جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
الإشراف الطباعي	وزارة الثقافة
محمود عبد المجيد	وزارة الإعلام
الغلاف والإشراف الفنى	وزارة التربية والتعليم
صبرى عبد الواحد	وزارة التنمية المحلية
ماجدة عبد العليم	وزارة الشباب
	التنفيذ
	الهيئة المصرية العامة للكتاب

تليجرام مكتبة غوامر في بحر الكتب

تليجرام : هنا سرور الانميكية أكبر مكتبة رقمية

تصدير

أنطونيو جالا، أحد كبار الكتاب الإسبان المعاصرين، وقد مثَّلتِ الثقافة العربية مرجعية أساسية لإبداعاته، فقد قرأها، وتأثر بشعرها ونثرها وتاريخها؛ لذا فالثقافة العربية تعد مفتاحاً رئيسياً للدخول إلى التجربة الإبداعية له.

ولد أنطونيو جالا في قرطبة بإسبانيا في ٢ من أكتوبر عام ١٩٣٦، وحصل على ليسانس الحقوق ولسانسان الآداب من جامعة إشبيلية، وحاز أيضاً على ليسانس الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة مدريد، وعمل مدرساً للتاريخ والفلسفة، ثم مديراً لمعهد فوكس للغات، وفي عام ١٩٦٣ فاز بجائزة «كالديرون دي لباركا»، بعدها قرر التفرغ تماماً للإبداع هاجراً كل الوظائف التي كان يشغلها.

أما إبداعاته فكانت متنوعة وغزيرة، فقد أصدر عدداً من الدواوين الشعرية والقصص القصيرة والمسرحيات، كما كتب

للإذاعة والتلفزيون الإسبانيين مجموعة من المسلسلات الدرامية، بالإضافة إلى الأفلام السينمائية التي أخذت عن رواياته.

ومن أبرز أعماله: «حقل عدن الخضراء» و «الأيام الحلوة الضائعة» و «المخطوط القرمزي» و «بترا المهداة» و «آنسة الفردوس العجوز» و «خاتمان من أجل السيدة» التي طبع منها حتى سنة ١٩٨٠ أكثر من مليون نسخة.

ويسعد مكتبة الأسرة هذا العام أن تقدم للقارئ العربي هذا الكتاب الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٦، ويضم خمس مسرحيات لأنطونيو جالا، وهى : ١ - ابن رشد، ٢ - الزهراء، ٣ - المنصور بن أبى عامر، ٤ - قصر إشبيلية، ٥ - الحمراء.

قام بترجمة هذه المسرحيات الشاعر المترجم الدكتور: عبداللطيف عبد الحليم «أبو همام» أحد أبرز المهتمين بالأدب الإشباني المعاصر، والذي تربطه باللغة الإسبانية علاقة وثيقة، بدأت منذ ١٩٧٦، عندما سافر إلى إسبانيا مبعوثاً إلى جامعة مدريد، حيث حصل منها عام ١٩٨٣ على الدكتوراه عن دراسته المقارنة بين شعر العقاد وميجيل دى أونامونو.

مكتبة الأسرة

تليجرام أكبر مكتبة هنا سور الأزيكية
600005

الإهداء

إلى صديقي وأستاذي

الدكتور أحمد هيكل

أنشدك قول الشاعر أبي بكر الداني الأندلسي:

أراشوا جناحي . ثم بلوه بالندی

فلم أستطع من حيهم طيرانا

ع.ع



مقدمة المترجم

ستظل الأندلس مسرحية مأساوية، تثير قرائح الشعراء والكتّاب، من عرب، وإسبان، ومن أمم أخرى، يلتقطون منها الأحداث الانفجارية - وما أكثر هذه الأحداث - فينسجون منها قصيداً، ومسرحاً، وقصة، ولوحة، وتمثالاً، إلى غير ذلك من صنوف الفن وطرائقه .

وأنطونيو جالا شاعر، وكاتب مسرحي من قرطبة عاصمة الخلافة قبل أن يكون من إسبانيا، ونعنى بذلك أنه قرطبي المزاج، والشعور والفكر، ومعارف الأعضاء، ولعله كان يصف نفسه حين وصف ابن رشد في مسرحيته المسماة باسم فيلسوفنا العظيم، وحين وصف قرطبة وأهلها : «إن طقسك ومناظرك - قرطبة - يكادان يماثلان طقس اليونان ومناظرها أكثر مما يماثلان بابل، وهما يجعلان رجالك هادئين وأذكياء، وقد لاحظت كذلك أن صوف الغنم الأندلسي أرق بكثير مما هو في بلد آخر، كذلك بنية رجالك أكثر توازناً كما يشهد بذلك لون سحتهم، وصفة شعرهم ، لون

الرجال الأندلسيين ليس في سمرة أهل الجزيرة العربية، ولا شعرهم له جعودة شعر الإفريقيين ولا هو سبط كشعر أمم الشمال، بل هو متموج حريري».

هذا التكوين القرطبي الأندلسي عميق التأثير في أنطونيو جالا، وفي رصفائه من شعراء الأندلس وكتّابه، وهذا الإقليم الجنوبي لا يزال - حتى الآن - أنجب الأقاليم الإسبانية شعراء وفنانين، مما دفع شاعراً كبيراً مثل رفائيل ألبرتي أن ينظم قصيدة عنوانها «الشعراء الأندلسيون» تباع ملحنة ومغناة على أشرطة التسجيل .

وشعراء الأندلس Andalusia حين يتغنون ببلادهم إنما يحنون إلى مجد قد أشاح، وازدهار قد أدبر، أيام كانت قرطبة عاصمة العالم تحت الحكم العربي، وهي وغيرها الآن محافظة لأحد الأقاليم، ويبدو أن الجنوبي هو الجنوبي في كثير من بلاد العالم ، فالجنوب الأندلسي بعد زوال الحكم العربي أصبح كماً مهملأً ، ينظر إليه - أيام محاكم التفتيش - نظرة الريبة والتوجس، فإذا رأينا شاعراً جنوبياً يتغنى ببلده - وما أكثر الشعراء وما أكثر غنائهم - فإنه يحلم بالماضي المزهر ويتمرد على الإهمال الحاضر، ولعل في غنائيات مانويل ماتشادو ، ورفائيل ألبرتي، وشاعر الحمراء بياسبيا وغيرهم ما يرشح لهذا الرأي.

ثم إن في تاريخ الأندلس مواقف كثيرة تحتاج إلى من ينفث فيها حياة الفن والشعر، والعبرة - في النهاية - بالشاعر الحق القادر على استلهام تلك المواقف.

والتقاط النقاط الدرامية بالنسبة لكاتب المسرح شيء شديد
الوعورة والأهمية ، لأن عدسته تتجاوز التاريخ الميت إلى الفن
الحى، دون اعتساف ولا تحميل للأشياء غير ما تحتمله طبيعتها،
ودون أن يطمس التعصب المقيت كما هو الحال لدى بعض الشعراء
الإسبان - ما هو باق وإنسانى بعيداً عن العرق والجنس.

إن للكاتب رسالة إنسانية اقتضته الحياة القيام بها، وتلك جزء
من الأمانة التى حملها الإنسان، ولن تكتمل هاته الرسالة - إلا
باكتمال أدواتها - أى أدوات الفنان الكاتب، ولن يصلح الموضوع -
مهما شرف - أن يخلق كاتباً إذا قصرت به أدواته، مهما أسقط ،
ومهما تذرع إليه بجاه الشهرة، لأنها شهرة عوراء تسيء إلى
صاحبها وإلى موضوعه!!

كثير من كُتَّاب العرب حين عالجوا موضوعات أندلسية للمسرح،
لم يحالفهم التوفيق، برغم تراحم النظارة على مشاهدة
مسرحياتهم، لأن بناء الموضوع مفتعل أحياناً، ولأن المعالجة غير
مقنعة أحياناً أخرى - ولأن العجز التعبيري يصيب الفن الشعري -
وهو صعب وطويل سلمه - بالكساح ، وفقر الدم ، فلا ترى فى
النهاية إلا مخلوقاً مخدجاً ، شائه الملامح والشبكات . لكن هذا
لا يعنى أن كُتَّاب العرب مخفقون مسرحياً، فمنهم من تجاوز كل
هذه الآفات ، أو جلها ، فغدا لهم مسرح شعري عن الأندلس،
يحظى بالتقدير والتعاطف.

لكن الآفة عندنا تقابلها آفة أخرى لدى كُتَّاب المسرح الإسباني حين يعالجون الأندلس العربية ، وقد ألمحنا إليها قبل ذلك، ونعنى بها التعصب الذميم ، وتصوير العرب على غير حقيقتهم، وهم - لودروا - خلف لذلك السلف العربى أو الأندلسى أن أردت الدقة .

من أبرز كُتَّاب المسرح الإسباني فيما يتصل بالأندلس خوسيه أورثكو فى مسرحيته السلطانة عائشة وفرنسسكو بياسبيسا فى مسرحيته المعتمد بن عباد ، وابن أمية ، وأنطونيو جالا فى مسرحياته التى نقدم لها بهذه السطور، ومسرحيته «خاتمان من أجل سيدة» وقد ترجمناها ونُشرت فى الكويت ١٩٨٤ .

وصاحبنا جالا فى كل كتاباته تقريباً يتنفس عبق التاريخ الأندلسى، ولا تكاد تحس لديه ما يسمم هذا العبق من تعصب وهوى ذميم، وإن عابه بعض المتطسين أنه يختار اللحظات الحرجة التى تصم ما هو عربى، أو بتعبير آخر يقع على لحظات الضعف والانهيال العربى، ولعل التكتيف الدرامى يقتضى اختيار مثل هذه اللحظات، ولا تثريب على صاحبنا ولا على غيره من ذلك الاختيار، لأنه اختيار فنى، لا سياسى ولا عرقى، ثم ما الخشية من نقد التاريخ بوسائل فنية؟ إن الرجل يناصر قضية «الحرية» فى مسرحه، نحس بذلك فى مسرحيته عن «ابن رشد» كأنه يدافع عن نفسه وعن قيمة الإنسان المفكر ضد الديماغوجية ، والسلطة المطلقة ، والهوج الذميم ، وضيق الأفق باسم الدين وباسم السياسة وباسم أى شئ كان ، ويدنم الوسائل غير المشروعة التى امتطأها

المنصور بن أبى عامر للوصول إلى السلطة فى مسرحيته التى تحمل هذا العنوان «المنصور» وتلمح «العاطفية» الشديدة، ورقته الفائقة فى حديثه عن الزهراء حديث العاطف الراثى لها، وتقف على نظراته الفاحصة فى نقد التاريخ ورجاله فى مسرحيته قصر أشبيلية والحمراء.

إن التاريخ لدى أنطونيو جالا فى هذه المسرحيات شاخص حى، أكثر من شخوصه وحياته فى مسرحياته الأخرى، وكأنى به - وهو يكتب هذه الموضوعات - إنما كان يعتمد على التاريخ اعتماداً كاملاً، ونقصد هنا بالتاريخ معناه الاصطلاحي، وغير الاصطلاحي، أى أنه يمثل ثقافة تلك الفترة تمثلاً كاملاً، ويسقط عليها إسقاطات معاصرة، لأن الإنسان هو الإنسان فى كل مكان وزمان.

المسرحيات ذات الفصل الواحد قريبة من فن الشعر أو فن القصة القصيرة، فى حاجة شديدة إلى التكثيف الدرامى أو ما أسميناه بالانفجارية وقد استطاع جالا أن يقتصر هذه اللحظات المكثفة من غابة التاريخ، لكنه الاقتصاص الذى يذكر بأصلها الشارد، ونعنى بذلك أن العقدة فى هذه المسرحيات أو فى بعضها - بتعبير أدق - فيها شئ من «الحل» ضد «العقد» مما يجعل المسرحية هنا قريبة أو شبيهة «بالمقال المسرحى» إن صح هذا التعبير، أو «مسرحية المقال» والمقال هنا «فنى» بطبيعة الحال، نستثنى من ذلك الحكم النقدى حديثه عن «ابن رشد» ففيه العقدة مبرمة ومكثفة، أما الأخريات ففيها تفاوت، ولعل مرد ذلك يؤول إلى أن جالا شاعر غنائى قبل أن يكون درامياً، فغلب غناؤه

الشعري عليه - وإن كانت المسرحيات نشرت هنا - وقد نظم هذه الموضوعات أو بعضها شعراً غنائياً مثله في ذلك مثل بنى جلده من الشعراء الإسبان قديماً وحديثاً.

ليست موضوعات أنطونيو جالا هنا عربية بعناوينها فحسب، بل إن تناوله يكاد يكون عربى الملامح والشيآت، نلمح هذا في إنصافه للتاريخ العربى إنصافاً يحمد له إنسانياً وقتياً، ونلمحه كذلك في تأثره الجيد بالتراث العربى تاريخاً وأدباً ، إلى حد نقل أبيات من قصيدة أبى البقاء الرندى النونية المشهورة التى يرثى بها سقوط بعض الممالك الأندلسية، وترجمت للإسبانية عن الألمانية، ترجمها أولاً إلى الألمانية فون شاك وترجمها عنه خوان باليرا فى وزن قصيدة خورخى مانريكى فى رثاء والده دون رودريجو، وقارن بين القصيدتين، وفى أخذ جالا أيضاً آيات من القرآن الكريم، - وله أكثر من ترجمة إلى الإسبانية - وفى أخذه كذلك أبياتاً من زجل ابن قزمان ، - وترجمه إلى الإسبانية غرثيه غومث، وفديريكو كورينطى - لكن جالا بجانب هذا الاقتباس - كان ينشر بعض الأبيات العربية إلى الأسبانية دون أن يلمح إلى ذلك، وقد وقفنا على بعض هذه الأبيات نذكرها هنا، يقول أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان:

لا تلحنى إن غدوت ذا طرب لما ثناني للأنس غريد
طوراً جليد، وتارة طرب كالعود منه الزوراء والعود

ترجم لهذا الشاعر ابن سعيد فى المغرب ج ١ ص ١١٠ تحقيق شوقى ضيف، وترجم له ابن سعيد أيضاً فى رايات المبرزين نشر

غرثيه غومث، وترجمه إلى الإسبانية ، وأنطونيو جالا - بلا ريب -
أخذ هذا المعنى ونثره فى مسرحيته عن ابن رشد - يراجع هذا
المعنى لدى جالا فى ص ١٥ .

وفى مسرحيته عن الزهراء حديثه الذى أنشأه بينها وبين
عبدالرحمن الناصر، يناجى كلاهما الآخر، مأخوذ من بعض أبيات
ابن بقى حيث يقول:

عاطيته والليل يسحب ذيله	صهباء كالمسك الفتيق لناشق
وضمته ضم الكمى لسيفه	وذؤابتاه حمائل فى عاتقى
حتى إذا مالت به سنة الكرى	زحزحته عنى وكان معانقى
باعده عن أضلع تشتاقه	كى لا ينام على وساد خافق،

ولهذه الأبيات سيرورة فى الأندلس عارضها كثيرون ما بين مؤيد
لهذا المعنى، وما بين مناقض له، أبرز الفريق الثانى الذى يقول :

ونم هنيئاً بخفق قلبى كالطفل فى نهنه المهاد

- الحديث عن ابن بقى فى رايات المبرزين ص ٧٩ تحقيق النعمان
القاضى، وترجمها غومث كما قلنا آنفا وقرأها جالا وغيره بلا ريب.

تأثر جالا بالثقافة العربية شعراً ونثراً ، وتاريخاً ، وفقها
لا مرية فيه، وهو كثير ، ربما تخرج هذه المقدمة عن إطارها لو
اقتفيناه ، لذا حسبنا الإشارة.

ومعلوم أن ترجمات المستشرقين - وخاصة ترجمات غومث - إلى
الإسبانية صادفت إقبالاً كبيراً من جانب الشعراء والأدباء الأسبان ،

ربما للجو الرومانسى الذى ساد إسبانيا فى أواخر القرن الماضى، وما يزال حتى الآن وإن اختلف تناول الشعراء لكن الرومانسية غالبية كذلك مهما كان هذا الاختلاف ، فالحنين إلى الماضى، لا يفتأ يساور نفوساً كثيرة، ولا مثلبة فى ذلك لأن المحك هو الصدق فى التجربة ، وبراعة الأداء.

هذه المسرحيات مُثلث كلها فى التليفزيون الإسباني، ولقيت رواجاً كبيراً من عامة النظارة، شاهدت بعضها وأنا فى إسبانيا طالب بعثة - ولست صنيعها فى نفوس الناس وعجبت ، وكان مؤلفها يخشى أن تجابه بالإشاحة والإعراض، نشر منها «ابن رشد» فقط فى مجلة Nueva Estafeta وأهدانى الأربع الأخرى - على الآلة الكاتبة - حين عرف أننى أزمع ترجمتها إلى لغة قومى.

وجالا نموذج للأديب الذى يعيش من قلمه - فى أوروبا - لا فى الوطن العربى - وويل لمن تدركه فيه حرفة الأدب - فهو يعيش من دخل كتبه ويكفى أن يعلم القارئ أنه طبع من مسرحيته «خاتمان من أجل سيده» مليون نسخة، وعُرضت فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية أكثر من ألف ليلة، وقد انتخب أخيراً رئيساً لجمعية الصداقة العربية الإسبانية، ترجمت معظم كتبه إلى لغات كثيرة، لكنه سعد كثيراً بترجمته إلى العربية، أكثر من سعادته بترجماته الأخرى، ولعل سعادته هذه أعدتني فسعدت بتقديمه إلى القارئ العربى قبل ذلك، وتتضاعف هذه السعادة لأننى قدمته تقديم الصديق إلى القراء الأصدقاء.

عبد اللطيف عبد الحلیم

المعادی فی ۲۸ من یولیو ۱۹۸۶

ابن رشد

(قرطبة من عل، المدينة، الشرقية، المنازل البيضاء، الأسقف الملكية، إلخ، عند النزول نرى ابن رشد، وهو فى السابعة والستين من عمره يعبر من عدة أماكن مختلفة ومهمة مع أناس عاديين من العصر الحاضر، ومنذ اللحظة الأولى نستمع إليه).

ابن رشد : يقولون عنك إنك لست سوى نفاية منك أنت يقولون عنك إنك لست سوى ظل لما كتبه بالأمس. يقولون عنك يا قرطبة، أنك عندما كنت عاصمة العالم وصلت إلى درجة بالغة من الجمال، ما أعسر أن يعتقد المرء ذلك حين لا توجد اليوم - وأنت محافظة لأحد الأقاليم - أية مدينة تتفوق عليك، فيك راق الجمال، وفيك بلغ الناس - فى سخاء - غاية جهدهم ، فماء نهرك متسرب بين شعاب الجبل والقرى عكس بالأمس مدى ثرائك، ويعكس اليوم مدى سكونك، إن طقسك ومناظرك يكادان يماثلان طقس اليونان ومناظرها أكثر مما يماثلان بابل، وهما يجعلان رجالك هادئين وأذكياء، وقد لاحظت كذلك أن صوف الغنم الأندلسى أرق بكثير مما هو فى بلد آخر، كذلك بنية رجالك أكثر توازناً كما يشهد بهذا

لون سحتهم، وصفة شعرهم. لون الرجال الأندلسيين ليس فى سمرة أهل الجزيرة العربية، ولا شعرهم له جمودة شعر الإفريقيين ولا هو سبط كشعر أمم الشمال بل هو متموج حريرى، أننى أحب كل الأندلس من خلال اسمك يا قرطبة، عندما أكون بعيداً عنك كل شىء يبدو لى غريباً حتى أنا نفسى أبدو غريباً، لقد صنتك دائماً فى سويداء قلبى كلؤلؤ مكنون فىك أود أن ألفظ آخر أنفاسى، وأن يتحلل جسدى ويشكل جزءاً من ثراك (يعبرنا بابا صغيراً) لأنى هنا - خلال سنوات كثيرة - خرجت من الشرقية لأعود مرضى، فإن القرطبيين من الأمير إلى الخفير أودعوا صحتهم فى يدي، يقولون إن المرء إذا نشد لبن العصفور يجده فى أشبيلية وفىك يا قرطبة من الذى يتجاسر على نشدان لبن العصفور؟ حسب المرء أن يتفesk شاعراً بيدك المعطرة على خده، وبأنفاسك الدافئة على جيده ، كتب الشقندى أن أهل أشبيلية قوم ذوو خفة وظرف، ولوذعية وسرعة بديهة، ويضيف أن الأشبيليين على ضفاف نهر الوادى الكبير. يعزفون على الربابة والقانون ، والقيثارة ، والنأى، والبوق، بينما يمزحون، ويتماجنون مع النبيذ، أشبيلية اليوم هى عاصمة الأندلس، أننى أحبها لأننى أحبك أنت، فإنها بمثابة أختك، ومع ذلك لا أدري لماذا؟ بيد أنه حين يموت عالم فى أشبيلية يحملون مكتبته لبيعها فى قرطبة، وحين يموت مغن أو موسيقى فى قرطبة فإنهم يحملون آلاته لبيعها فى أشبيلية (أمام أحد الأعمدة فى بهو البرتقال) مستنداً إلى هذا العمود طالما ألقىت دروسى، قليل هم أولئك الفتية القرطبيون الذين لم يأخذوا منى أكثر مما أخذوا من

آبائهم. أفضل هذا السكون، أفضل هاته النظرات، أفضل أن تبقى الأشياء فى مكانها هادئة حيث أقامتها القرون، يقولون عنى أنتى رجل أتجاوز الحدود فى صرامتى، لأنتى لم أصنع شيئاً غير المدارس، فى الواقع أذكر أنتى نسيت الكتب ليلتين فقط: أولاهما ليلة موت أبى، وثانيتها ليلة عرسى، يقولون عنى إنتى رجل صارم، أنتى لا أرانى هكذا، أعتقد إنتى فى آن واحد رجل صارم ومرح، مثل الخشب الذى فى وسعك أن تصنع منه قوساً للحرب، وأن تصنع منه عوداً، إنك هكذا أيضاً يا قرطبة، لذا عندما ذهبت إلى موريتانيا أو إلى أشبيلية كنت أشتاق إليك كثيراً لأن المرء يفكر جيداً، ويعمل أفضل حين يتنفس الهواء الذى ولد فيه ، أنتى أشفق على الأندلسيين المنفيين، ربما لا يذبل رجل آخر مثلما يذبل الأندلسى حين يقصى عن سمائه ، عن كسله، عن عطره، عن طريه، عن شعوره الصحيح بالحياة والموت. (أمام باب المسجد) لقد مررت بهذا القوس مرات لا تحصى لأؤم المسلمين فى صلاة الجمعة باعتبارى قاضى القضاة (نرى ضوءاً بين غابة الأعمدة الداخلية) وهنا فى طريقى اليوم ليحكم على! أنا الذى مارست القضاء أكثر من ربع قرن، وفصلت فى كل أمور هذه المدينة: مدينتى، وحتى الآن كانت أحكام قضاة قرطبة الآخرين فى قبضتى: محتسب السوق، وكيل المواريث والقائم بأمور المعايير والأثمان صاحب المدينة، صاحب ديوان المظالم، هنالك جالس فوق حشيتى أفصل بالعدل والقسطاس المستقيم، فليجعل الله المقياس الذى يحكم على به اليوم من نفس المقياس الذى كنت أحكم به، وإن كان

يبدو لى أنه مجلس أكثر من العدد اللازم، لم تتعود العدالة أن تبني
عشها وسط الزحام.

(ضجة أصوات، تهتف كلها تقريبًا بلا نظام «النظام، النظام»
يختفى ابن رشد فى ظلال الأعمدة).

صوت ١ : القضية الأولى هى عدم نقاء دم ابن رشد، فهل لنا
أن نعرف إلى أية قبيلة يعزى؟ من الذى يؤكد لنا
أنه ليس من أصل يهودى؟ (همس دائم، وجلبة مستمرة).
الأصولى : منذ تسعين سنة كان ابن رشد - جد هذا - قاضياً
لقرطبة.

ومنذ ستين سنة كان أب هذا قاضياً كذلك، من
نحن حتى نحكم على سلالة قضاة؟

صوت ٢ : (فى هياج) هاهنا نحن قادة العسكر فى قرطبة.

صوت ٣ : وفقهاء قرطبة.

صوت ٤ : وقضاة قرطبة.

صوت ٣ : لقد اجتمعنا هنا بأمر الأمير لنفحص مؤلفاته،
ونقرر الأمر بشأن هرطقته.

الأصولى : وعن صحة عقيدته لا؟

صوت ٥ : حذار يا إبراهيم الأصولى، لا تهو معه بسبب
دفاعك عنه.

صوت ١ : إننى أتساءل لماذا يسميه النصارى ابن رويث: أليس
رويث هذا لقباً نصرانياً؟

الأصـوـلى : وليس نصرانيًا لقب مردنيش؟ والملك لب المرسى
لب بن مردنيش ، ألم يكن لوبى بن مردنيش؟
صـوت ٤ : لقد كان الملك لب أشد الخصوم عنادًا للوكنة
الموحدين.

الأصـوـلى : بيد أن ملكينا أبا يعقوب وأبا يوسف تزوجا ابنتيه،
برغم ذلك فلا نخلط إذاً بين صحة العقيدة وبين
البيولوجيا ولا بين الشفقة وبين نقاء الدم، أننا هنا
فى قرطبة حيث تربع التسامح قرونًا طويلة،
فلا نهدمه اليوم.

(وجه ابن رشد بين صخب المجلس).

صوت ابن رشد : التسامح .. ألم يبدأ اليوم فى التخلّى عن عرشه
(على أبواب الكنيس) كان ميمون صبيًا - تقريبًا،
عندما قابلته ذلك الصباح، ومع ذلك لم يكن
صباحًا جليًا، ولدى أبواب الكنيس، كان الدمع
يجول فى عينيه أوماً إلى أن أدخل.

صوت ميمون : أستاذ ابن رشد ..

ابن رشد : (وهو فى الخامسة والعشرين) لا تنادنى بلقب
أستاذ:

صوت ميمون : كانت آخر مرة وطأت فيها أرض الكنيس يا ابن
رشد.

لقد أجبرنا الموحدون على الإسلام، وتحول المرء
عن عقيدته بسبب الخوف من الموت لن يكون على

الإطلاق تحولاً صحيحاً، وقد أعلنوا كراهية اليهود، منعوكم - أنتم المسلمين - من خدمتنا والتعامل معنا، وحرّمونا من التجارة معكم، وذبح الحيوانات من أجلكم، فلا يؤذن لنا بارتداء زى شريف، ولا يدعونكم تلقون بالسلام إلينا، وحظروا علينا شراء الكتب العلمية، حتى ممارسة الطب المفيدة، وبعد قليل يا ابن رشد سيحرّمون علينا التفكير، ويمنعوننا أن نكون رجالاً يا ابن رشد، سأمضى عن قرطبة.

ابن رشد : صبراً ياميمون، أنك مازلت فتى، والأمور تتبدل.
صوت ميمون : نعم، تتبدل إلى أسوأ، سأمضى عن قرطبة، ليس لى إلا حياة واحدة، كنت أود أن أودعك، وأوصيك باحترام الرأى الآخر، والمعاشرة السلمية، وتبادل الحوار، والتفريق بين العدو وبين المخالف فى الرأى، لأن هنالك تكمن أصالة أى علم، وأى دين مهما كان، وداعاً يا ابن رشد، حافظ على قرطبة!! واحترس من قرطبة!! (مازال أثر الضجة فى المسجد على وجه ابن رشد).

صوت ٦ : لماذا لم تشرح لنا يا أصولى صداقته الحميمة بالأمير أبى يحيى شقيق السلطان؟ ألم تكن تلك الصداقة مؤامرة؟

الأصـولى : ألم يكن ابن رشد أيضاً صديقاً حميماً لأبى يعقوب؟ أليس اليوم صديقاً حميماً أيضاً لابنه؟ ألا يدعوه أبو يوسف - حفظه الله - أخاه؟

صـوت ٦ : إن التقرب من الملوك ذو عاقبة وخيمة دائماً، والخيانة تتسلق هوى الحكام المفرط كما يتسلق اللبلاب جذع الشجرة.

صـوت ٥ : إن سوء استعمال الثقة يستلزم ثقة سابقة.

صوت ابن رشد : (يسلط ضوء على وجهه) كنت قد أتممت أربعين سنة حين عين أبو يعقوب ابن طفيل طبيباً به الخاص، وعينه وزيراً ، وكان يعيش فى قصره، وقد واعدنى ذات أصيل هناك، وقدمنى للسلطان، وكنت شديد الارتباك...

(قاعة القصر، وابن رشد فى الأربعين من عمره).

صوت السلطان : حدثنى ابن طفيل عنك بدون كلل، ملحاً على أن لديك نظريات عجيبة، ولا تتسق دائماً والسنن المرعية، ماذا ترى مثلاً فى خلق العالم، أهو قديم أو محدث؟ (تبدو حيرة على ابن رشد) إن ابن سينا يعتبر مسألة الوجود بمثابة عرض للجوهر (يتحدث عن خلق واجب لكائنات عرضية) وفلاسفة الإغريق لا يرونه هكذا: لأن العرضية تنافى الوجود.

ابن رشد : (متحمسًا) وأنا أيضا لا أرى هذا ياسيدى. فإن
الله خلق العالم منذ الأزل، لأن الإرادة الإلهية
لا يمكن أن تحركها علة خارجة عن الذات، كان
العالم دائمًا ممكنًا، ومخلوقًا على الدوام، ومسألة
الخلق - كما أرى - أمر واجب ، وإن كانت المخلوقات
شيئًا عرضيًا.

صوت السلطان : إن أرسطو غامض. ليتك تشرح كتبه وتعلق عليها
لنتجلى لنا.

صوت ابن طفيل : سيدى ، ليس ثمة رجل أكثر استعدادًا لهذا من ابن
رشد ولهذا أصررت على إحضاره إليك.

ابن رشد : لست كفؤًا لهذا ياسيدى، ولست أعرف اليونانية،
ومؤلفات أرسطو كثيرة جدًا، وجهودى ضئيلة جدًا.

صوت السلطان : حاول هذا يا ابن رشد. (بينما ابن رشد يقبل
الأرض بين يديه) حاول يا ابن رشد.

(فى المسجد مرة أخرى)

صوت ٤ : فى رسالة وجهها إلى أمير المسلمين لقبه «بأمر

البربر» دون أن يستخدم أى لقب من ألقاب التوقير.

الأصولى : (ثائرًا) ، هذا شيء قد مضى، وقد اتضح الأمر،

قد اتضح، وفهم أبو يوسف شرحه، كان خطأ من

الناسخ، الذى التبست عليه علامات الترقيم، كتب

ابن رشد «ملك البرين» أيتخذ الأمير طبيبه

الخاص رجلاً لا يوقره؟

صوت ٨ : ولماذا أمر إذا أن نحاكمه؟

الأصولي : ليست محاكمته التي علينا أن نقوم بها، بل أن نرى رأيًا، وبدون صخب.

صوت ٣ : في إحدى رسائله اعتبر النجوم آلهة، وذكر اسم الألهة فينوس.

الأصولي : كان اقتباسًا يونانيًا، لقد سرق بعضهم من مكتبته ورقة مفردة، وعرضها على السلطان، كفى! كفى! أنكم تتبرعون باتهامات كاذبة، ومنسية، ودسائس ندامي سفيهه، وبأحقاد وخلافات، ابن رشد فوق كل هذه الترهات، (ضجة ضخمة، يتقدم ابن رشد إلى وسط الضجة).

ابن رشد : اهدءوا ، اهدءوا، شكرًا لك أيها القاضي إبراهيم الأصولي، شكرًا يا صديقي، بيد أني أرجوك ألا تؤد شهادة طيبة في حق أكثر مما صنعت، حسبك أن يتهم أحدهنا (يتوجه إلى من حوله) حضرات العلماء والقادة، والفقهاء، أنكم مجتمعون في هذا المجلس لتقييم مؤلفاتي، وأنها لمعددة، وغزيرة حتى أنني لا أذكرها، لقد كتبت عن كل شيء تقريبًا، تحدثت عن ما هو إنساني، وعن ما هو إلهي، وبدون ريب وقعت في أخطاء علمية، بيد أني أؤكد لكم أن نيتي كانت دائمًا أن أعول على ما جاء في القرآن الكريم، وما جاء في تفاسيره

الصحاح، أنكم أنتم أهلى، كنت طبييكم، وطبيب أولادكم ونسائكم، لقد حيا بعضنا بعضاً فى شوارع قرطبة، وتعارفتا، و صلينا معاً، وتسامرنا معاً أحياناً فى هدوء فى منازلكم أو فى منزلى حول آلاف الأمور المهمة، وتبادلنا الآراء والنظرات، وكنت قاضى قضائكم، ودافعت عنكم فى المجلس الملكى، مهتماً بأمور طلاقكم، وشهاداتكم، ومواريتكم، وتكفلت بأموال الغائبين، واليتامى، والقاصرين، وطلبت منكم أحياناً مشورة فى مجالسى، وكنتم شهوداً على أحكامى وعلى نزاهتى، و بجانبى هنا توجد وثائق أحكامى، لم أصنع فى حياتى أكثر من المدارس، والتأمل، ومساعدة الذين حولى، لهذا أقف بينكم هنا بلا خشية، أننى أوأمن بالإنسان وأثق فيكم، لأنكم تعرفوننى، أنكم فقهاء وطنى، وقضاته، وقادته.

صوت ٣ : (بعد لحظة صمت خفيفة) أنك تحدثت عن القرآن وتفسيراته، وتؤكد أن الدين له نواح متعددة حسب الرجال واستعداداتهم، وضح ذلك.

ابن رشد : أفهم أن ثمة ثلاث طبقات من الرجال، كل طبقة يناسبها ضرب من الأدلة. فالعامى يركن إلى إيمان بدون أدلة، أو بأدلة خطابية، والفقهاء أهل اقتناع يستخدمون الفكر الجدلى، وحججاً احتمالية،

والفلاسفة أصحاب براهين، مثلهم الأعلى هو العلم، يشترطون أدلة لازمة إلى أقصى حد.

صوت ٣ : انظروا، أنه يضع الفلاسفة فوقنا، نحن الفقهاء! زندقة.

صوت ٩ : فى إحدى المناسبات التقيت بالصوفى ابن عربى، وقد اعترف لك بأن «الحب هو دينى» وأنت أجبتة: بأن «العلم هو خير الأديان».

ابن رشد : فى ذلك اليوم شكرت الله كثيرًا، لأننى وقد انكبت على التأمل والمراجعة، والمباحث العقلية تفردت برؤية رجل - بعينى هاتين - دون مدارس، ومطالعة وبدون تدريب - ولج جاهلا إلى عزلته الروحية، وخرج منها وقد أصابته العدوى الإلهية.

صوت ٧ : هذا تعبير زندقة

ابن رشد : أتخلى عن هذا التعبير : أنه مجرد استعارة.

صوت ١٠ : ألا تؤمن بالوحى ؟

ابن رشد : أؤمن بأن الله يعلم البشر عن طريق الوحى، ما لا يستطيع العقل أن يصل إليه، بيد أن هذه الحقائق العليا التى يحتاج إليها المرء ليعيش نوعان : حقائق مجهولة على الإطلاق أى أن إدراكها ليس فى طبيعة العقل، وحقائق مجهولة لطائفة من الناس ليس لديها استعداد كبير، وفى رأى أنه يجب على

الإنسان أن يحاول - فى إصرار - أن يفهم أسرار الدين.

أصوات متعددة : زندقة، فسوق ١

صوت ٦ : كيف يكلم الله البشر؟

ابن رشد : بثلاث طرق كما جاء فى القرآن، بالوحى، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً، وفضلاً عن هذا الوحى الذى لا يدرك بالعقل، فثمة طريقة أخرى للحقائق الطبيعية فى ذرع الجهد الإنسانى المثقف أن يحصلها، وليس ثمة ما يدعو إلى تعارض العقل والنقل.

أصوات متعددة : زندقة، زندقة ١١

ابن رشد : (يجهر بصوته كى يسمع) إن المؤمن له الحق - بل إنه واجب عليه - أن يتفكر فى دينه.

أصوات متعددة : فسوق ١١

ابن رشد : إن الفكر الفلسفى لا يقودنا إلى نتائج تعارض النقل، لأن الحقيقة لا تناقض الحقيقة إلا إذا تدخلت عوامل منحرفة مثل التعليم الغلط، والجهل، والهوى، والتحيز.

أصوات متعددة : إنه يهيننا ، أنه يحمل علينا ١١

صوت ١٠ : (محاولاً أن يكظم سخطه) وماذا عن أفكار المتمرده فيما يتعلق بالنساء.

ابن رشد : ليست متمرده. لقد كتبت فحسب عن مساواة الرجل بالمرأة فى بساطة، وأكدت أننا نجهل

مهارات المرأة، لأنها لم تستخدم إلا في الإنجاب،
وبسبب أننا لانعدهن لأي نشاط إنساني، فقد
صرن يشبهن النبات. وأحد أسباب فقر بلادنا
هو عدم أهلية وكسل النساء اللاتي أراد لهن
الرجال هذا، فإذا كن ضعفن في العدد كيف لا
نعتي بهن؟ كيف ندعهن، ولا نسمح لهن في
ظروف نادرة بسوى الغزل والنسج؟ أننى أعجب
بالمرأة وأحترمها.

صوت ٥ : ويقول إن أفكاره ليست متمردة !

صوت ٩ : قد قررت أنه لا يوجد طغيان أشد من طغيان
العلماء أو الفقهاء.

صوت ٢ : وأن الجيش هو حارس الشعب وليس صاحبه.
ابن رشد : إن هذه الجمل تفهم في سياقها الذى وردت فيه،
أننى فيلسوف يخيل لى أن التزمت في الدين
خطأ، وأنا رجل أندلسى.

صوت ٢ : (مقاطعا) أنه يجاهر بالقومية الأندلسية إزاء دولة
الموحدين.

ابن رشد : إننى لا أجاهر بشيء. أقول فقط أن للأندلس
تقاليد راسخة من الحضارة والمعرفة، ليس من
الممكن أن تحكم كما تحكم أقاليم أخرى لا
تضاهيها في شخصيتها، إن الأندلس دائماً احتلت
محتليها.

أصوات متعددة : ماذا تريدون أن تسمعوا أكثر من هذا، هيا بنا إلى السلطان.

صوت ٦ : المثقفون فرديون، ومناهضون للحكومة.

ابن رشد : ليس الأمر هكذا، أظن فقط أن السلوك الاجتماعي للإنسان لا بد أن يخالف سلوكه الفردي، ففي الوسط الجماعي ما تزال ممارسة الفضائل أكثر حدة ودقة منهج، بالطبع ليست الدولة في حد ذاتها شيئاً، أنها جهاز تربيوي، من الضروري أن يكون له هدف لجعل الإنسان أفضل. عندما كنت قاضياً في موريتانيا أغرقتها بالمدارس، وما كان للدولة هدف إلا هدف أفرادها، هكذا يكون الخير العام : تحقيق السعادة للمواطنين من خلال رعاية القانون، والخلاف بين المثقفين والحكام يكمن في أن الفريق الأول يتأملون الفضائل المجردة، وأن الفريق الثاني عملي يحاولون تطبيقها، أن السياسي يحقق معجزة حقيقية: إذا حصل على أن يؤدي الناس - وهم أحرار - ما ينبغي عليهم أدائه داخل النظام العالمي. يتطلع الفيلسوف إلى هذا الصراع من بعيد، لأن ثمة أيضاً في هذا الصدد ثلاثة أصناف من الناس: الماديون الذين يبحثون عن اللذة والمتعة، والشجعان الذين يسعون إلى المجد والشهرة،

والعلماء الذين ينشرون العلم، والصنف الأخير فحسب
هو المؤهل حقيقة لقيادة الآخرين. (ضجة بالغة).

صوت ١٠ : فأمرأؤنا إذا غير شرعيين.

ابن رشد : أتقول إنهم غير علماء.

صوت ٧ : ما الذى يحقق شرعية السلطة؟

ابن رشد : العفة ، والعلم ، والحكمة.

صوت ٧ : على هذا الأساس ينبغى أن يخلع مواطن مسلم
سلطاناً غير كفاء ، فاسقاً، أو فاجراً.

ابن رشد : الذى يقرر هذا هو أنت. حسب ما أرى فإن السمة
الظاهرة لشرعية حاكم هى علمه، وينبغى أن
يصاحبها فضائل أخرى مثل المجد، والثروة،
والتوفيق، والقوة.

صوت ٢ : إلى هذا كنت أريد أن أصل. هذا يتعارض مع
الجهاد، فى هذا الوقت الذى نود فيه أن نسترجع
الأرض التى تركها المرابطون قبلنا مسلوية بسبب
ضعفهم، فى هذا الوقت الذى يطمح فيه شعبنا
ببصره إلى وحدة العالم الدينية، فى هذا الوقت
الذى تنهض فيه دولة الموحدين لتبسط سلطانها،
يرفض فيه ابن رشد «فرض العين» على كل مسلم،
هذا الذى نشأنا عليه نحن، ونشأ عليه آباؤنا من
قبلنا والذى خول لنا العظمة والسلطان، والذى
قدم بنا إلى هنا : الجهاد.

ابن رشد : لم أنكر هذا الفرض، أنا رجل مسالم، لكنى لست
مستسلماً، ما أقرره هو أنه ربما يتعلق هذا الواجب
بأشخاص أهل لتحقيقه.

صوت ٢ : أعتبر فلسفتك أرفع منه؟

ابن رشد : أدافع بما فى وسعى عن حرية العمل بالنسبة
للعلماء، العمل الصامت، الشاق، الملىء بالزهد،
وإنكار الذات، المكرس تماماً لخدمة الجماعة،
افهمونى ، افهمونى، (تبلغ الضجة ذروتها . حتى
على وجه ابن رشد).

صوت ابن رشد : كانت ساعة القيلولة، وكان الحمام يسبح، وتفوح
رائحة الياسمين، حينما كنت أترجم أرسطو،
فسمعت فى الشارع صوت الشاعر الصعلوك هذا
المجنون ابن قزمان، وكان يتسلل صوته فى شئ
من الوضوح من خلال النافذة المفتوحة بين عبق
الياسمين الفاغم والورود، ماذا كان يفنى؟

صوت ابن قزمان : فمثلك أعطى، ونشط للمديح (وأثار الكراهية
والحقْد) ^(١) ومثلى أخذ، وشكر، وانصرف. (قهقهة).

وإذا مت مذهبي فى الدفن
أن نرقد فى كرمة بين الجفن
وتضموا الورق على كفن
وفى رأس عمامة من زرجون

(١) ما بين معقوفتين أضافه المؤلف على نص ابن قزمان .

ابن رشد : (فى حزن) فى ذلك الوقت لم أدرك ما كان يبنى
الشاعر فى زجله أن يبلغه إلى.

كل الأصوات : ملعون ، ملعون (مرة ، مرة ، وفى جماعات).

صوت ١ : باعتبار أن نظريات ابن رشد مؤذية ، فإننا - نحن
العلماء والفقهاء فى قرطبة نناشد أمير المسلمين -
حفظه الله - أن يعلن هذا الخطر شعبياً ، كما يبتز
العضو الأشل من جسد الجماعة الأهلية، ونتيجة
لهذا نلتمس من أمير المسلمين أن يجرد ابن رشد
من كل مناصبه، ومن كل رتبة، ومن كل ثرواته، وأن
تحرق مؤلفاته، تعليمًا للناس، وتكياً بمن يمكن
أن يكون من أتباعه والمارقين، وأن ينفى عن مدينة
قرطبة.

(من عدة أماكن مهمة فى قرطبة، يقرأ الحكم
فقرة فقرة، أحياناً جملة جملة، وأحياناً أخرى
كلمات فقط بين همس مستغرب من الناس).

صوت ابن رشد : (يغلى على تلاوة الحكم) لا تخدعوا هذا الشعب
الرائع، لا تهيجوه بالباطل، لا تخدعوه أبداً، إنكم
تهزونه دائماً بين موافقته مثل الطفل كيلاً
يزعجكم، أو بين معاقبته فى فظاظة مثل الطفل
دون أن توضحوا له السبب، تتنقلون من
الديماغوجية إلى الاستبداد، احترموا شعب

قرطبة هذا، واحذروه فإنه مثل السكين إن لم تحسنوا استخدامه فإنه يقطع أيديكم.

(فى ميدان منزو، وفى الطريق الذى ينادى فيه بالحكم شرعوا فى إحراق كتب رشد).

ابن رشد : كل إنسان حين تجرحه التعاسة فإنها تجرحه فى أعماق أعماقه. وداعاً يا أبنائى: يا أبناء لحمى، وأيضا أبناء نفسى، أعى أنه فى يوم ما ستنتهى حمى الاتهام هذه، وإفناء عمل الغير العسير، وستزول هذه البلادة، وذلك الحزن، وسوف تستمرون من بعدى تحكمون، وتعملون فى قرطبة، أننى أدرى ذلك : هذه مدينة هادئة، لكنها لا تتسى، وشعبها عادة أفضل من حاكميه، سيزول هذا الحقد، سينتهى هذا الهوى غير المسوغ للحرب التى تدمر قبل كل شىء أكثر الناس منها قريباً. وسوف يزول العامل الهدام بالنسبة لأولئك الذين يمارسون السلام والعلم والحوار، لكنى لن أحيأ، حتى أرى هذا، لن أرى قرطبة بعد ذلك، حبيبتي، ولن أرى نجومها الكثيرة السهاد والتى طالما كنت أرهاها، ولا هواءها الذى خبرته فى تأن، ولا هزات أرضها التى استطعت أن أعلنها قبل حدوثها، لن أرى بعد ذلك هذه الأرض، ولا هاته المناظر، ولا تلك الأم التى كانت مهيئة

لاستقبالي، يا أسفاً على قرطبة. التي تنفى
علماءها، وأبناءها البررة، وتطفئ أنوار الذكاء،
وتشعل الجذوة المعادية، وتنفي شعراءها، وتمجد
الذين يستبدون بها. وأسفاً عليك يا قرطبة. أنك
هجرت الشروع في الفهم، وكذلك وأسفاً على ،
فإنني أفقدك، وأسفاً على حين أكون على عتبة
الموت يقصونني عنك، حين احتجت إلى جوك
يهجر الزرزور شجر الزيتون، (يأخذ الصوت في
التلاشي) وداعاً قرطبة، وداعاً، سأسقى أرضاً
أخرى بدموعي، ستواري أرض أخرى هذا الجثمان
الذي منحني إياه، وداعاً، وداعاً.

(٢)

الزهاء

(يخرج آخر فوج من السائحين بعد رؤية أطلال مدينة
الزهراء، يفلق الحارس باب الدخول من السور، بعد ذلك
يعود إلى مسكنه، يقترب الفسق، نستمع إلى رفرفة
حمامة بيضاء، يشوبها سواد على شكل طوق، تحط فوق
أعلى مكان من الطلول، تترقب، تنهادر، تقف، تختفي
وراء تاج عمود أو سارية، وحين تظهر ثانية نرى الزهراء)
الزهراء: (باحثة عن أحد) عبدالرحمن.. عبدالرحمن
الناصر.. عبدالرحمن.. (في حزن) لم تأت اليوم
كذلك، لقد أزهرت أشجار اللوز ألفا وثلاثمائة
 وخمس مرات منذ أن مضيت، منذ أن أغمضت
 عيني، ومنذ أن بسطت يدك يا عبدالرحمن
مغطيا وجهي بآخر قناع، ألفا وثلاثمائة وخمس
مرات اختلفت إلى هذه المدينة حيث أبرمتنا
معاهدة أنت تتقضيها يا عبدالرحمن أين مضيت؟
أين اختفيت؟ إن ظلت واقفة هاتيك الأعمدة منذ

ذلك الحين، وتلك المآذن السامقة، وهذه الجدران
المطرزة منذئذ فريما أفكر في أنك ستخرج
ضاحكاً من خلف أحد الأعمدة أو المآذن أو
الجدر التي اختفيت وراءها كما كنت تلعب
أوانئذ.. لكن ماذا بقى هنا مما كان؟ حجارة،
حطام، حجارة آلت حطاماً، وحبى، ... بل حبنا
يا عبد الرحمن: في ذرع الزمن والرجال أن يأتوا
على أجمل مدينة عرفها الزمان والناس، بيد أنه
ليس في وسع قوة أن تأتي على هذا الحب الذي
من أجله شيدت هذه المدينة، فوقها يا
عبد الرحمن كانت تقف الكواكب من أجلى
وأجلك، شكراً يا حبى لأن كل شيء تحول في
يديك إلى معجزة، لأننى بجانبك - طوال الوقت -
أقنعتنى بأن الموت لم يكن مدعواً على مائدة
أعيادنا: وأنتى كنت خالدة، وأنت خالد، وخالدة
كذلك أفراحنا، شكراً يا حبى، يا عبد الرحمن،
من أجل المعاهدة التي أبرمناها معاً تحت هذا
القمر ذاته الذى كان يفضض الحقائق، ويرطب
الأبهاء بالضياء، ويتلألأ في الغدران، معاهدتنا
التي أبرمناها أول مساء...

عبد الرحمن : (خارج المشهد) سأبتعد عن كل ما يبعدنى عنك،
وسأنأى عن كل ما يقصينى عنك...

الزهاء : (خارج المشهد) (كانه صدى) سأنأى عن كل ما
يقصيني عنك...

عبدالرحمن : (خارج المشهد) كوني وفية للعهد مادمت أنا وفياً..
أن تكونى محبوبه يقتضيك أن تكونى محبة..

الزهاء : أين أنت يا عبدالرحمن الناصر؟ أهلاً ما أقرب
ما كنا، وما أبعد ما نحن اليوم! كم مرة حتى الآن
على أن أهبط قبل أن أستقر من جديد بين
ذراعيك؟ لأنه ليس ثمة امرأة كانت محبوبه مثلى،
لكن ليس ثمة امرأة كذلك كانت عاشقة مثلى.
(منظر لمدينة قرطبة، ربما من فوق منارة الكاتدرائية
الجو ليلاً).

الزهاء : أذكر أول مرة رأيتك فيها، كانت فى بهو البرتقال
بالحامة الكبرى: فى مكان كان قلب مدينة قرطبة
حينما كانت قرطبة قلب العالم، وأنت، أول خليفة
أموى يستقل عن خلافة بغداد تتعايش هنا كل
الأجناس، كل الأديان، يؤمها علماء من فارس،
وبيزنطة، معماريون من دمشق والإسكندرية،
موسيقيون، وشعراء من كل فج عميق، وقرطبة
المدهشة المذهلة، كانت تحتوى الجميع، وكنت
الملك الأكثر حرية وثقافة فى كل الممالك: حيث
كان الحداد يلبس البياض، وحيث كانت الراية
أيضاً.. كان ملوك النصارى مثل عمدة القرى،

ويعيشون عيشة عُمد القرى حين يقارنون بك،
كنت تتلقى هدايا هائلة من ملوك بعداء، وأجمل
السبايا من كل الأصقاع.... وكنت أنا واحدة
منهن، عبدالرحمن، يا حبي....

(قريباً من نافورة بهو البرتقال، خارج المشهد، كل الحوار
الآتى والوقت نهارا).

الزهاء : حدث ذات صباح، استمعت هنا - مذعورة - حديثاً
بلغات شتى... كنت قادمة من البيرة، قروية، من
سييرا نيفادا كنت بين زميلاتى مثل شاة تنتظر
المدية، كانت تسمع نواقيس المستعربين، وأصوات
المؤذنين، وكان الهواء يفوح برائحة أزهار
البرتقال...

عبدالرحمن : (خارج المشهد، كأنه يتذكر) كان الهواء يفوح باسمك
يا زهاء...

الزهاء : كان عالماً جديداً جداً بالنسبة لى، قد وصلت من
جليد جبالى.. وصلت فى إبريل، حيث كانت فى
ظلال انتصاراتك، الممتدة حول البهو، كان الفقهاء
يقننون العدالة، والأساتذة يلقون دروسهم
والأثرياء يتنافسون فى مزايدات المخطوطات
والأعمال الفنية الغريبة، والشعراء الفتيان
ينشدون قصائدهم الغزلية، ويطالع العلماء
متريعين فى ضوء الشمس، والقيان يعزفن ويغنين

أغنيات من بلادهن، وتشمخ الراقصات
بصدورهن فى الرقصة... وأنا أنظر كل هذا
مذعورة مثل شاة تنتظر المديّة، كنت فى الخامسة
عشرة من عمرى، وكان الهواء يفوح برائحة
البرتقال.

عبدالرحمن : (خارج المشهد كأنه يتذكر) كان الهواء يفوح باسمك يا
زهراء....

الزهراء : موجة من الضجة، وحدث حركة مفاجئة،
ال خليفة وصل. رأيت عبر وجوه كثيرة أخرى، لم
أكن رأيت من قبل، لكنى عرفت من هو... كنت
أنت يا عبدالرحمن. كان يتخلل شعرك الذهبى
شعرات فضية، رأيتك هادئاً، عذّباً، فكرت: «لابد
أن يكون الملك - بفتح اللام - على هذه الصورة»
فجأة وقفت الحاشية، وقفت حين وصلت إلى
مكاني، وبإيماء منك أقصيت الذين كانوا
يفصلون بيننا، ودون أن تطرف عينك، ودون أن
تبسم، ودون عجلة اقتربت منى مثل من يقصد
هدفه مباشرة، ومثلما تشعر شاة بشمار المديّة
شعرت بنظرتك، أطرقت برأسى (تفعل هذه
الحركة)...

عبدالرحمن : (خارج المشهد) ما اسمك؟
الزهراء : (خارج المشهد) الزهراء يا سيدى.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) كل شيء يفوح هذا الصباح برائحة
الزهر، هذا الصباح كل شيء يفوح باسمك
ليحفظ الله من سماك الزهراء.

الزهراء : (فى المشهد) سمونى بالزهراء حين ولدت، أن
قدرى لم يصنع شيئاً سوى تقبل الاسم الذى
خلعوه علىّ.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) سأفعل ما يجعل لاسمك الذكر
الأبدى.

الزهراء : (فى المشهد) لقد شيدت مدينة الزهراء
يا عبدالرحمن، لم تر أعين الناس، وما رأت، ولن
ترى مدينة مثلها.

(مرة أخرى بين الطلوع).

الزهراء : لقد اتفق كل العالم على أن يشيد هذه النادرة.
امتلات البحار بالسفن المقلعة من إفريقية،
وسورية، وإيطاليا واليونان محملة بالهدايا من
أجل مدينة الزهراء، وقدم من تونس وميديا
اليشب الأخضر والوردى، وما بقى من قرطاج
أحضره إلى هنا، وأرسلت روما الأعمدة، ومن
بيزنطة الأحجار السماقية والفسيفساء، ومن
طاراجونة ومالقة والمرية الرخام الخمرى
والأبيض والمجزع، لقد آضت مدينة الزهراء تاج
العالم، هنا كانت الأحجار مثل الزهور، وكانت

الزهور أحجاراً ثمينة، لقد رصعت بطانة
السقوف بآلئ مجسمة، وتحت الأرضفة كانت
السواقى تصدر أنينا على ثمانية وثلاثين نمطا
مختلفا لى تثير النفس، أو تهبها الإغفاء، أو
تهدهدها، كان فى المدينة أكثر من ستة آلاف
عمود، وأكثر من خمسة عشر ألفاً...

عبدالرحمن : (خارج المشهد) سأفعل يا زهراء ما يجعل لاسمك
الذكر الأبدى.

الزهراء : فى اليوم الذى أحضرتنى فيه، فرشت الطريق
بنثار الذهب والناردين، والقرفة كيلا تلوث
الأرض أقدام العبيد الذين كانوا يقلون هودجى،
هذه هى الغرفة التى التقينا فيها أنت وأنا، كانت
أقباؤها العالية مرصعة بالذهب والفضة، هنا
كانت البحيرة التى كنت أستحم بها، المشيدة
باليشب الأخضر المرصع بالآلئ و حولها اثنا
عشر حيواناً مصوغاً من الذهب الأبريز، تلفظ
المياه من أفواهها، وعلى إيقاع هذه المياه قلت لى
ذات يوم...

عبدالرحمن : (خارج المشهد) كم أود أن أفتح فؤادى، و أضعك
بداخله، ثم أغلقه، كيلا تستطيعى السكنى فى
غيره حتى يوم النشور.

الزهراء : هنا عانقتى بعنف يا حبى ذات أصيل، وضممتى

ضم الكمى سلاحه، وتدلّت ضفیرتای من عند
كتفیک مثل حمالتی السیف.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) فى المساء نمت فوق قلبی، وبرفق،
زحزحتك عن ضلوعی کیلا تنامى على وساد
خافق....

الزهرراء : لقد نظممتا يد الحب للسرور والجمال: كنا مثل
الخرز وكان الحب مثل الخیط.... (فى شكوى) من
الذى استطاع أن یقطع هذا الخیط یا
عبدالرحمن یا حبى؟ قل لى من الذى استطاع أن
یتعدى عليك أيها الناصر.. (فى مكان آخر من
الأطلال) كان هذا هو قاعة سفرائه، بجدرانها
المرمرية القوية بزخرفتها المفرغة، بأبوابها
الثمانية من الأبنوس والعاج وبطانة سقفها
مرصعة بالیواقیت، والعقیق، والجزع، وبحيرة
الزئبق الضخمة تبهر من كان ينظر إليها، كما
تبهر من ينظر إليك یا عبدالرحمن یا حبى، أين
ذهبت؟... هنا عدلك نصرانى أن تتوله بقينة
مثلى، وأنا أعیر المشربية سمعتك تجيبه.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) لو كان فى ذرعى أن أسیطر على
حبى ربما لم أحبها، بیّد أن سلطانى لا یصل إلى
كل هذا، لست أحبها لحلاوة مقبلها، ولا لوميض
عينیها، ولا لجفونها المراض، لست أهواها لأن

من بين أصابعها تثب متعتى، وتلعب كما تلعب
الأيام مع الآمال، لست أهواها لأن جسدها يمثل
لى الربيع الوحيد، لست أحبها لأننى حين أراها
أشعر بالرى فى الحلق، وبالظماً الحارق فى
الوقت ذاته، أنتى أهواها ببساطة، لأنه ليس فى
وسعى صنع شىء غير أن أهواها.

الزهرراء : من الذى جذم آصرة روحينا يا حبى؟ من الذى
حل الأنشطة المعقودة فى يدينا؟ منحوس،
منحوس، منحوس، كنا فى الغسق جالسين بين
زهر الأنيمونى، بالقرب من السنبلى البرى، وعلى
شاطئ البحيرة وارف النيلوفر حين سمعنا
بوضوح صوتاً واضحاً يا حبى..

صوت رجل : رغبتم فى تشييد مدينة خالدة، رغبتم فى بناء
مساكن أبدية، ستعلمون قريباً أن فىء عوسجة
يكفى أن يصل مجهداً فى نهاية رحلته، (يُسمع
صراخ، خارج مدينة الزهراء).

(فى خارج المسجد).

صوت : إنكم قد أثرتم غضب الله، ومن أظلم ممن منع
مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعى فى
خرابها، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا
خائفين، لهم فى الدنيا خزى، ولهم فى الآخرة
عذاب عظيم، والله المشرق والمغرب فأينما تولوا،

فثم وجه الله، فاتقوا الله، ومارسوا السلام مع
إخوانكم، لعلكم ترحمون.

الزَّهْرَاءُ : (ذاهبة نحو المحراب) هنا مكان مقدس، كل الناس
ذكروا هنا خالقهم أيًا كان الإسم الذي أطلقوه
عليه، هنا تعبد الرومان، وأمم أخرى خلت من
قبلهم ومن قبل النصاري والمسلمين، ثم من جديد
يتعبد لنصاري، لكنها أمة في أثر أمة، ومع ذلك
فإنه شيء جميل في مكان مثل هذا، قريب من
النهر، بين الجبل والقرى أن يعبد الناس جميعًا
مرة واحدة هذا الذي خلقهم على صورته: كل
هؤلاء الذين استقروا بجانب النهر العريق، بين
الجبل وبين الريف، تبارك الله القدير (منصورة)
الذي يحيى ويميت وإليه النشور.

صوت : وإذ قال إبراهيم، رب أرني كيف تحيي الموتى، قال
أو لم تؤمن قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي، قال
فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل
على كل جبل منهن جزءًا، ثم ادعهن يأتينك سعيًا،
وأعلم أن الله عزيز حكيم.

الزَّهْرَاءُ : (بين الأعمدة) يا عبد الرحمن، يا عبد الرحمن،
لماذا كل عمود يباين الآخر هل لكيلا ألقاك
يا عبد الرحمن؟ (بقعة على سطح المرمر في أحد
الأعمدة تذكر بوضوح رأس عيسى، تقبله الزهراء).

صوت : سبح اسم ربك الأعلى، الذى خلق فسوى،
والذى قدر فهدى، والذى أخرج المرعى،
فجعله غثاء أحوى.. سبحوه سبحوه (أطلال
مدينة الزهراء) لم يكن هذا بسبب سخط البرير،
بل بسخط الله الذى أتى على كل هاته العظمة
لكى يتذكر الناس أن تسامحه ليس مطلقا، وأن
حبه ليس مطلقا، وكذلك ابتلاءات حبه غير
مطلقة.

الزهراء : كانت هذه المدينة تسمى الزهراء، لم تدم أكثر من
عمر زهرة، لكن ماذا يعنيها؟ إن حبى لك ليس فى
حاجة إلى الحياة لكى يظل متوهجًا.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) على كل هذه الأحجار أمرت أن
ينقش حبى لك، فإذا حدث فى يوم ما أن داهمها
خراب جعل عاليها سافلها فإن كل بقية من
بقاياها تشهد على الحب (الزهراء تتأمل زهرة فى
وسط الأنقاض) اقطفى هذه الزهرة الآن وبعد ذلك
بمجرد النظر إليها تتحول إلى لاشيء...

(فى الحدائق المزهرة فى القصر القديم، على شاطئ نهر
الوادي الكبير).

الزهراء : ذات يوم، كنت أرى الماء يجرى كثيفاً مثل الزيت،
وبين الطواحين قلت لى..

عبدالرحمن : (خارج المشهد) لوددت أن أبين لك أنه لا أحد فى

هذا العالم أحب أحداً مثلما أحبك أنت، ماذا
أستطيع أن أفعل؟

الزهرراء : (خارج المشهد) حديق فيّ يا عبدالرحمن، حديق فيّ،
إن الله خلق أمته على عينه، حسبى هذا لأعظم
الله في نفسي، (حاضرة) هكذا أجبتك... منذ
ذلك اليوم، آه أي نحيب قد حملته المياه، لكنك
أصررت.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) ماذا ينقصك يا زهرراء؟
الزهرراء: (كانها تلعب) (خارج المشهد) إن قرطبة مرآة العالم
يا عبدالرحمن: عقده الفريد، إنك وهبتها الجمال
والسلام: هذان هما ينبوعا الحكمة، لكن قرطبة
يعوزها شيء ما.. كان لدى في جبل البيرة قبل أن
أعرفك.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) ما هو يا زهرراء؟ قوليه لي،
وستجدينه هنا أيضاً.

الزهرراء : (خارج المشهد) ليس في الإمكان، إن الله قد صنع
بإرادته الجبل والسهل، والحر والقصور، يطلقون
على جبلك هنا اسم الجبل الأسمر، ويطلقون
على جبلي جبل الثلج، وأنا منذ طفولتي أقضى
أصيل الشتاء أرقب في زهول سقوط البرد، ولا
تعرف قرطبة الجليد، وأنت يا عبدالرحمن ليس
في ذرعك مع كل سلطانك أن تجعل قرطبة تتلج.

عبدالرحمن : (خارج المشهد) ستتلعج من أجلك يا زهراء، يا حبيبى،
سأجعلها تتلعج.

الزهراء : غطيت بأشجار اللوز جبل العروس (جبل المحبوبة)
يا عبدالرحمن وآض جبلك الأسمر أبيض من
الحب مثل العروس، أبيض مثل جبلى، وفى
الصباح حين أرى الجليد المعطر ظننت أنى أموت
من الحب وكل عام كثيراً ما كنت أهبط فى اليوم
الذى تزهر فيه أشجار اللوز لأقدم لك شكرى..
شكرى على حنان جليدك وحرارته يا عبدالرحمن
يا سيدى، سيدى، سيدى أنا..

(فى متحف الآثار صاعدة نحو القاعات العربية).

الزهراء : لا يكاد أحد الآن يتذكر إلا يجد شواهد الحب
الكثيرة باردة ومرتبة ها هو المرمر المهشم حيث
أمرت بحفر العهد فى أول ليلة: «سأبتعد عن كل
ما يبعدنى عنك» ماذا حدث للجزء الآخر.
«سأنأى عن كل ما يقصينى عنك».. الأمر سواء
حيث يكون:

من الممكن أن يتهشم المرمر، لكن عهدنا لا يا
عبدالرحمن (أمام مائدة عليها جواهر) إنها
جواهرى، كانت جواهرى، الجواهر الدون،
المحتقرة من كل السلب (ترفع الغطاء الزجاجى،
تتقلد عقداً).

عبدالرحمن : (خارج المشهد) إن نحرك رقيق جداً يا زهراء،
شديد الرقة لدرجة أن جواهر الطوق تميل به
(تلبس الزهراء أسورة تتسق تماماً مع معصمها) إن جلد
معصميك هائل الرقة حتى الأساور تدميها.

الزهراء : (تشرب كأساً) ذات مساء، تحت شمس زعفرانية
متكئين على مخمل الآس، مترنحين من السعادة،
لم يكن أحد من الملوك مثلك، أنا وأنت فحسب
يا عبدالرحمن، شريت نبیذاً أصهب من هذه
الكأس، على حافتها ظلت شفّتك بعض وقت..
(تكاد تبكى، تجيل شفّتيها على دائرة الكأس)، بعد ذلك
حضرت سكرة الموت، وحلم الموت (تقع الزهراء
متكئة في إحدى القاعات في أطلال مدينة الزهراء)
جاءت ليلة الخطر، والفرق.

صوت : لقد أجتبتم ما أمر الله به، سوف يجرفكم
بمأخقة، تحاولون التوحد وليس ذاك بمتيسر، لن
يدافع عنكم أحد، لأن الله مسك السماء بيديه
خلقها في راحة، وجعل الأرض مشاعاً، خضراء،
ذات أنهار عراض، وأنتم أردتم أن تجعلوا لكم
وحدكم سماء في الأرض.

الزهراء : لا شيء يقف أمام قضاء الله. (أصوات قصية من
عبدالرحمن، في نشيج تنادى الزهراء) هاته الأصوات
أطلقتها منذ ألف سنة وأكثر في هذا الوادي

رغبنا فى البقاء، يا حبيبى، بيد أنا لم نستطع،
الإنسان بدوى راحل ليس فى ذرعه اللبث: الفرار،
الفرار، تذوى الغلال، ويذبل شجر اللوز، تتلاشى
الكلمات، والفرسان الذين امتطوا صهوة الجياد
فى خيلاء يهوون إلى الأرض، والأسقف المذهبة
تخر على الأرض، والجمال الذى تكلف سنين
عددا لكى يتم نسفه ويسقط فى غمضة عين،
لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون
ساعة ولا يستقدمون، لا شئ يقف أمام قضاء
الله، لقد دمرت بغداد قبل قرطبة، وأتى الدهر
على عاشقين قبلنا، يا عبد الرحمن لم تحسن
صنعا أن أطلقت على هذه المدينة اسمى، إن
الزهر لا عمر له تقريبا، وداعا أيها الشرفات
المنطفئة، والبقايا المجهدة التى شاهدت سعادتى،
وداعا شفافية النسيم، وداعا أيها الشهود...
سيأتى يوم تتجمع فيه عظام الزهراء، تكتمل فيه
أنامل أصابعها، يوم تضغط فيه يداى على يدي
من هويت، إذا خسف القمر، وإذا الشمس كورت،
وإذا النجوم انكدرت، حين تخضر وجوه من
يعيشون الآن، ويبحثون عن ملاذ دون أن
يصادفوه.. لأننى أقسم لكم أن الحب لن يموت:
إننى من الحب وللحب خلقت، لهذا حين أعود

إلى الحياة - فالأحجار وأشجار اللوز، والمنارات
الهاوية، والرياحين، والنخيل، والأقواس، والمعادن،
والروعة البائدة - يا مدينة الزهراء فإن كل
بقاياك حيث كانت قصية، أو غائرة ستثوب إلى
مكانها حيث وضعها الحب، لأنك يا مدينتي
أنشئت مثلى من الحب وإلى الحب... (إلى الداخل)
وأنتم أيها العشاق أحبوا دون أن تضيعوا لحظة
واحدة. قبلوا ضوء الشمس، أو ضوء القمر (يبدأ
الصباح يتنفس) هذا الضوء الذى يبحث عنكم
مجتهداً قرونًا إثر قرون لكنه يبحث عن قبض
الريح.. مثلما بحث عنى ولم يلقنى (تختفى الزهراء
حقيقة وراء أحد الأعمدة) وداعاً أيها العالم الذى
عشقت فيه، والذى كنت فيه معشوقة، (وراء العمود
تنهض حمامة، هى التى كانت فى البداية، تطير نحو
جهة لا ندرها).

(٣)

المنصور بن أبي عامر

(فى مسجد قرطبة، فى الجزء الذى شيدده الحكم
الثانى).

المنصور : أبو الحسن بن جعفر بن عثمان المصطفى، أتباع هشام
الثانى بن الحكم الثانى خليفة بفضل الله القادر.
صوت المصطفى: أبايه.

المنصور : (تأخذ الأصوات فى التلاشى شيئاً فشيئاً) محمد
بن حفص بن جابر.
صوت ١ : أبايه.

المنصور : عبد العزيز بن حدير بن عذارى.
صوت ٢ : أبايه.

المنصور : عبد الله بن برطال.
صوت ٣ : أبايه.

المنصور : أبو أسحاق بن محمد الأفللى.
صوت ٤ : أبايه.

(فى حدائق القصر).

صبح : قد عرفتكَ منذ تسع سنوات يا أبا عامر، وما رأيتكَ مطلقاً بعيد الغور كما أنت الآن، كنت هذا الأصل رائئاً جداً أمام الناس وأنت تأخذ البيعة، إنتى أحببتكَ يا أبا عامر.. فى أى شىء تفكر؟
(متهكمة)

أتشعر بالأسى لموت الحكم؟ لم يكن زوجاً بل لم يكن رجلاً، من الأفضل أن أكون أم الخليفة الجديد.

المنصور : خليفة فى الحادية عشرة يا صبح !
صبح : لا تتادنى هكذا، أن اب ابنى أطلق على اسم غلام: جعفر، أن قرطبة تدعونى «صبح» وأنا يروق لى أن ينادونى كما كانوا ينادوننى فى وطنى اليسكى.
إن اسمى أورورا بالنسبة لك.

المنصور : فى يوم ما سأغير اسمى أيضاً بالنسبة لك، فى يوم ما سأسمى نفسى المنصور.

صبح : (ضاحكة) المنصور هذا لقب قائد جيش، ليس لقب رجل سياسى مثلك يا أبا عامر، يجب أن تدعى «الطموح» وليس «المنصور».

المنصور : لماذا ؟

صبح : لقد وصلت إلى حيث أنت، حتى أنا نفسى لا أكاد أعرف من أين جئت.

المنصور : أين أنا؟

صبح : انظر يا أيا عامر . يا للأسف إنك لم تر نفسك
اليوم فى المسجد .

المنصور : (خارج المشهد، ناظرا نحو الوادى الكبير) هذا
الجسر أول ما أذكره من قرطبة، إننى قدمت من
طورش بجانب وادى آرو كنت فتى يقظاً، قليل
الابتسام، تروق له النساء كثيراً. (ضفة بجانب
أبو العافية) جئت لدراسة الفقه والبلاغة، فكل
أسرتى فقهاء، قليل منها درسوا الطب. كم مرة
رأيت فيها أصيلاً فوق المياه المتباطئة عظمة
الشمس، وهى تذهب الريض، كم حلم من أحلام
العظمة دون معنى حمله نهر الوادى الكبير نحو
أشبيلية.

ما أشق أن يتطلع إنسان إلى الحكم ولم يولد حتى
ولو من بعيد فى مدارج العرش (مجموعة من
الفتيان). «فتى مجنون محمد بن أبى عامر
المعافى، فتى مجنون» كنت أردد هذا بنفسى. وبين
رفاق الدرس كنت أتعامل كأنى لن أمارس الفقه
أبدًا، أشم، قصيا «سيكون أبو عامر قاضى قرطبة»
وكانوا يرددون هازلين: «أو وزيراً، ألا ترون؟» ينظر
إلينا فى ازدراء «لكن لن يكون أبو عامر فقيهاً
صالحاً على الإطلاق» كان صحيحاً: كم كنت
أضجر من الفتاوى التى لا حصر لها، والأحكام

المحفوطة عن ظهر قلب، وحيل المتفیهقین (خارج
كنيسة القديس بارتولوميه) عند احدى البوابات،
قريباً من القصر ومن النهر نصبت مكتب الدعاوى
هنالك كان يقصصنى العوام كى أكتب لهم
عرائضهم، التماساتهم، كتبهم إلى الوزراء أو
القضاة، كان يؤلنى معصمى من الكتابة طوال
اليوم. عامان اثنان - عامان فظيعان طويلا -
قضيتهما هناك. أخفقت أحلامى فى السلطان
(جدران قرطبة) تزوجت ليس يعينى بمن، كانت
الذلفاء زوجى الأولى، ثم تعاقبت أخريات، عندما
قدمونى لأعمل كاتباً فى معية قاضى قرطبة،
علمت أن آمالى أخفقت . (بهو: بيت دى لاس
ثياس، أو قصر بيانا) موظف تافه إلى الأبد.
مساعد قاض تفوح منه رائحة المداد والورق كل
الوقت، معذباً تحت الأسقف الخائفة، بينما
السلطان فى الخارج يتمطى تحت السماء الرائعة
الزرقة، وكذلك المتعة فى أن تكون مطاعاً، لأنه ما
الحياة الحقيقية دون هذا؟ ثمة أناس أكثر سعادة
على نمط آخر، يحيون على ألف طراز من الحياة،
لكن عالم السلطة شئ آخر بعيد عن السعادة،
شئ لا يمكن مقارنته بأى شئ، شئ يماثل
سلطان الله، وتعالى الله عن أن يكون بائساً شقياً،

أنه القاهر وكفى.. هكذا كنت أرى الأشياء، وحين كنت فى السابعة والعشرين من عمرى، فى ركن أحد الأبهاء أكتب محضر دعوى دعونى إلى القصر، وتحدث إلى الوزير المصحفى، حسبت أن كل هذا أضغاث أحلام، مثل حكايات الشتاء التى يزعمها الزمنى، ولا تصلح لشيء.

(جدران المسجد الخارجية، واجهة غربية).

صوت المصحفى: قدم إلى القاضى أسماء كثيرة، وقد اختارت السلطنة - حفظها الله - اسمك أنت، وكافأ الخليفة فى كرم واضح أم ولديه الوحيدين: عبدالرحمن وهشام، وعملك أن تكون قيماً على مالهما.

صباح : فى خلال السنوات التسع التى عرفتكم فيها ما رأيتم مطلقاً مشغول البال كما كنت اليوم، ما أجمل ما بدوت لى حين رأيتم فى المرة الأولى يا أبا عامر، دخلت مقصورة الحريم مثل جبريل مشعاً بالضياء، رغبت وقتها أن أدلك أنامل يديك بحجر خفاف لكى أنزع منها بقع المداد.. ماذا حدث لك اليوم؟ .

(جدران عربية جميلة):

المنصور : (خارج المشهد) وبعد ستة أشهر تقلدت دار السكة، بعد ذلك صرت رئيس الخزانة، وبعدها قاضى لبلة

وأشبيلية، وبعد قليل عيّننى الخليفة بعد وفاة
ولدك الأكبر وكيل دار هشام، كل ذلك حين شيدت
منزلى فى الرصافة، وانطلقت الشائعات تتهمنى
بأننى أهدرت مال الخزانة، بالطبع أنفقت، كان
لابد لى أسعد الحريم بادئاً بصبح، وبالأصدقاء
أولى التأثير، وبالذين من الممكن أن يصلوا إلى
التأثير، وبالجواسيس، وبأصحاب الألسنة، طلبت
قرضاً كى أسد الخل، وبهذا طمأنت شكوك
الخليفة إلى الأبد، فقلدنى رئيساً للشرطة وبعد
أشهر قلائل إدارة الفرق التى مضت لحرب
الأدارسة فى إفريقية وخلالها عرفت غالباً قائد
الثغر الأوسط، وعند قفولى عينونى مراقباً عاماً
لجنود الجيش.

صـبـح : أبا عامر، يا حبى، ستقول لى ماذا حدث لك اليوم أم لا ؟
بلغت السادسة والثلاثين من عمري، وكل المناصب
المنصـور : التى تقلدتها مناصب إدارية بحتة، لا أحد منها
يحمل شارة السلطة.

صـبـح : (ضاحكة) «الطموح» لقد توسمت فيك هذا، الجو
يبرد، هيا إلى الداخل (من الحديقة يعبرون إلى
قاعة داخلية).

إن الوزير المصحف، وأنت وأنا الذين بيدنا الآن
مقاليد الخلافة (فوق مائدة مرصعة علبة شطرنج

تشرع صبح فى الإشارة إلى قطع سوداء : الملك
ولدى. (الملكة) أنا. (طابية) الصقالبة. (طابية
أخرى) وجوه الناس. (حصان) البربر، (حصان
آخر) الجيش. (فيل) المصحف، فيل آخر. (أنت).

المنصور : يعيننى أيضاً الصف الأول. والقطع الأخرى
البيضاء، لست أمثل أية قطعة يا أورورا، كل ما
وددته طوال حياتى أن أكون اليد التى تحرك
الشطرنج.

(صالة قصر، من الممكن أن تكون إحدى قاعات
المسجد، أو قاعة القديس فرناندو مثلاً).

المنصور : إن الخليفة مازال حدثاً، وأنت سيدة، وأنت
الحاجب أنكما أنتما اللذان تقرران خطة الملك،
إنهم يقطعون الطريق عليكما، وأنتما تعرفان، وكل
قرطبة تعرف هذا، لقد تواطأ الصقالبة حيث مات
الحكم، يريدون تنحية ولدك، وقد حلنا دون ذلك،
لكن فائق وجؤذر وهما الرأسان، مازالا، دون
عقوبة.

المصحف : فى قرطبة ثلاثة عشر ألفاً من الصقالبة وهم
خطيرون، متحدون جداً ويحظون بمزايا هائلة
منحها إياهم الخلفاء السابقون، فإن فائق الرئيس
الأعلى لفتية هذا القصر، وجؤذر هو قائد الحرس
الخاص، ولديهما خدم لا يحصون، أننى أخشى..

المنصور : (مقاطعاً له) إنهما خصيان يامصحفي، مهما تملك
أيد خائنة من سلطات فإنها تصنع خونة أكثر،
إنكما انتما للذان يجب عليكما أن تقطعاها، أننى -
فى الواقع - ما زلت وكيل الأموال، وأنت يا
مصحفى خذ فى حسابك مواطنيك البرير، وأنت
أيتها السيدة وجوه العرب، وأنا بتحركاتى
وصداقاتى أدرك أن الفكرة تروق الشعب كله الذى
يمقت الصقالية لعجرفتهم، وجهلهم، وقساوتهم،
ليس الأمر فقط تطبيق العدالة: لكن الأمر هو
الاختيار منهم ومنكم: الخليفة وأمه محجور عليهما
فى الواقع. (مداهنًا) حين تخضد شوكتهما من
المناسب أن يزهو المصحفى بلقب حاجب: أن أوامر
الحاجب لا ترد. ما رأيكما؟

صبح : رتب الأمر فى سرية يا مصحفى مع فائق وجؤذر،
ليس من الملائم أن تشرح لهما السبب: فإنهما
يدركان العلة. أن أبا عامر على صواب، فسحق
الصقالية ليس بداية رديئة لسياسة مملكة،
وستكون أنت أيضاً أكثر أماناً.

المصحفى : إن الله يلهمك ياسيدتى، وأنا أطيع، شكراً أبا عامر،
فى اليوم الذى أكون فيه الحاجب، فمن مثلك يحلى
محلى فى دست الوزارة؟ هكذا ينتهى مدرج ارتقائك
السريع إذ أهنتى نفسى أن عاونت فيه.

(قاعة فى بيت المنصور)

المنصور : (يطرح طايبية الشطرنج).

هكذا رأيكم فى الحاجب الجديد؟

صوت ١ : ليس لأننا فى بيتك أيها الوزير، فإنك تعرف أن

قرطبة، تعبدك، أنك عادل، وعظيم، أما المصحف

فأنه بربرى دخیل، وبخیل، دس أنفه فيما لا يعنيه

طوال عهد الحكم، لقد حان الأوان ليذهب.

صوت ٢ : إن الأسر ذوات النسب لا تبتلعه، لقد امتلأ

بالذهاب وصار مثل الضفدع فارغاً، أسرته خشنة

جدا كأنها لم تفارق إفريقيا.

صوت ١ : يؤلنا أن يحكمنا رجل نحتقره.

صوت ٢ : بضربة تقضى على المصحف، يتلقى البربر درساً

جيداً، أولئك البربر المتغطرسون الحمقى مثلاً

كانوا عليه من حوالى قرنين ونصف حينما قدموا

إلى الأندلس.

المنصور : إن أسركم - وأسرتى - وصلوا إلى الأندلس بعد

قليل من وصول أولئكم.

صوت ٢ : نعم. لكن ليس مع طارق؛ بل مع موسى، نحن عرب

بلديون، لسنا بربر.

المنصور : (يظهر الالتزام بالأمر) علينا أن نتعاون مع

الجيش، علينا أن نتعاون مع القائد غالب، سيفعل

ما يمكنه لو ألحقتكم كثيراً.

(القصر الملكي).

المنصور : يتكاثر النصارى يا أورورا، يهاجمون الثغور ظانين أن الخلافة وأهنة، من أجلك ومن أجل ولدك أنا مستعد لصنع أى شئ يا حبيبتي، دعيني أذهب لقيادة فرقة.

صباح : لا يا أبا عامر، لا أريد مخاطرك، أن مكان وزير هو قرطبة، هنا، والحرب من شأن غالب يقررها من مدينة سالم حيث هو.

المنصور : اسمح لى أن أذهب أنا، وأن أكون الذى يطمثك.

صباح : فضلاً عن أن المصحف يقول إنه ليس لديك خبرة بالحرب مطلقاً ويستلزم حشد فرقة تكاليف جساما.

المنصور : ياله من بخيل لئيم، مهما كانت التكاليف، أكون حمايتك وحماية الخليفة غالية؟ من الحسن والحرية أن نجكم أنت وأنا يا أورورا دون وجود المصحف، مريه أن يصرح لى أن أذهب إلى الحرب ضد النصارى بجوار غالب.

(فى مدينة سالم)

المنصور : عندما رأيتك تحارب فى إفريقية يا غالب أدهشتنى. لم أتطلع إلى شئ سوى أن أكون بجانبك، أحارب تحت قيادتك، وأن أتعلم فى معركة ضد أعداء الاسلام.

صوت غالب: شكراً لك أيها الوزير، من الذى كان يظن أن ذلك الإدارى الصغير أوانئذ سيتحول إلى عمود رايتنا، راية لا تبقى ساكنة فى قرطبة ترتعد، بل إنه يخاطر فى الوصول إلى هنا.

المنصور: (يتأمل المنظر) يالها من أرض مختلفة: نظيفة، باردة، متميزة. لرؤية العدو يكفى الصعود هنا لنكون أعلى منه، وفى قرطبة فالعدو - مع ذلك - هو الذى يكون دائماً فى المحط الأعلى، ما رأيك فى المصحف أيها القائد؟

صوت غالب: إذا كنت تتكلم عنه، فليس غريباً لدى أن تقول إنه فى المحط الأعلى: أنه أكبر متسلق أعرفه. لو منحنى مكافأة خدماتى كما منح هو نفسه لم أكن ذلك القائد البائس، لكن آه! فإن رسوم الخدمات يقدرها هو لا أنا.

المنصور: كيف يرى الشمس تغييراً فى الحكومة.

صوت غالب: كما يراه الخليفة ووجوه الناس.

المنصور: سأكون فخوراً أن أطيعك مثل أحد جنودك.

صوت غالب: تقدم. (ضجة معركة)

(فى مدينة الزهراء).

صبح: مرحباً بك يا أبا عامر، أحبك أكثر من أى وقت، لم يدر بخلدى مطلقاً أن تكون كذلك بطلاً. من كان يظن أن رجلاً من سياسى البلاط يعرف كيف يغنم معركة؟ قرطبة توليك حبها، وإننى أغار منها.

المنصور : أمامك ياسيدتى، وأمام هؤلاء الحشم أنصب
نفسى مديراً لمدينة قرطبة.

صبح : بيد أن هذا المنصب يشغله أحد أبناء المصحفى.

المنصور : لهذا يا سيدتى . وقد علمت أن أسماء بنت القائد
غالب طلقت من الوزير ابن حدير، أريد أن أتمس
يدها لى.

صبح : لكن غالب قد منحها إلى ابن المصحفى الآخر.

المنصور : لهذا ياسيدتى!

صبح : زوجا أخرى أبا عامر؟

المنصور : سأستعملها لإعلان حرب، لن أستطيع أن أشغل

قلبى بها لأنه مشغول بك (تبسم صبح) المصحفى

لا يتعاون معه أحد الآن، إنه يقف وحده. الجيش

يفضلنى أنا، ووجوه الناس فى قبضتى، يريدون أن

يتبوأوا - فى جنون - المناصب التى لا نهاية لها

والتى قلدها المصحفى ذوى خاصته.

صبح : أفعل مابدالك أبا عامر.

المنصور : (يطرح فيلا) المصحفى ياسيدتى.

صبح : لم يبق غيرك، لقد أصبحت صاحب كل شىء.

المنصور : حتى الآن. لا، يا حبيبى، حتى الآن لا .

(عند المحراب)

صوت طفل : إننى هشام الثانى، خليفة قرطبة أمير المؤمنين -

رضى الله عنه - أريد أن أمتحك - هدية زواجك -

لقب الوزير الأول الذى يفخر بحمله فقط أب
زوجك أسماء، غالب الشجاع، وأن أقلدك منصب
الحاجب الذى شفر بذهاب المصحف الخائن
(يسجد المنصور باسمًا).

(داخل دار المنصور)

صوت ٤ : الذين شلهم سقوط المصحف يوجهون التهمة
إليك، يناصرهم بعض الصقالبة الذين أغضيتهم
عنهم، ومئات من المسلمين المارقين، أما الفقهاء
فإنهم لن يدافعوا عنك لاعتقادهم أنك غير مؤمن
صالح.

المنصور : عندما تقطع شجرة لابد من الإتيان على جذورها
الفائرة.

صوت ٤ : أسوأ ما فى الأمر أن شكاواهم هاته ينظمها
الشاعر الرمادى، والأهاجى حين تنظم تكون قوية
الإيقاع، وتبقى محفورة فى الذواكر.

المنصور : (أمام الشطرنج) ليشنق جوذر الذى وهبته حياته
منذ ثلاث سنوات (يشرع فى رمى قطع الشطرنج)
ليكون عبرة للمتآمرين، وليقصى كل الرعوس،
وليقتنع الفقهاء إن المخالفين لى يهاجموننى ليس
لأنتى غير مسلم صالح، بل لأنتى سنى مدافع عن
المذهب المالكى. وأن ينتقى وفد منهم - من بين
الأربعة آلاف مجلد تظمها مكتبة الحكم - بعض

المجلدات التى يعتقدون أن بها هرطقة وإلحاداً ١
وأن تحرق. أو ليتحول المتآمرون إلى تآمر دينى
وليس سياسياً. وبالنسبة للشاعر - وهو صوت
الشعب - بينما أحاول أن أحمله للتغنى بفكرة
أخرى، فليسكت : بالدينار أو بالنار حسب الذى
يريد. وأنا - فى ساعات فراغى - بجودة خطى
المعهودة سأنسخ القرآن ليكون هذا الانشغال الورع
تجربة ونموذجاً لكل المدينة، هكذا أتذكر أيام كنت
كاتبا (يتهى حقيقة للقيام بهذا) أن السلطة فى
يدى الآن، ويبدو لى أن الحفاظ عليها أشق من
السعى فى سبيلها.

(لوحة الشطرنج تتضح فى الظلام)

المنصور : سيكون من المناسب أن ينشغل المرء بالقطع
المتناقضة، إذا كانت هناك واحدة لم تكن
متناقضة، الذى لم يولد حاملاً لقب ملك ويود أن
يكون له فعليه أن تكون يده سخية، وضميره نقياً،
وأن يحرز نصراً فى الغزوات، سأغزو غزوتين كل
سنة ضد النصارى، ليس لأنهم نصارى، ولا لأن
جيوشى مبتلاة بهم، ولا لأن أمراءهم يحارب
بعضهم بعضاً مثل الذئاب، بل لأتنى فى حاجة إلى
النصر عليهم كل خمسة أشهر أو ستة، كذلك فى
حاجة إلى أموالهم، للحفاظ على قرطبة سيده

وجميلة وهو الشيء الذى يستدعى تكاليف باهظة
فى هذا العالم (موسيقى حربية) سنبدأ بالثغر
الأوسط (حصن غرماج، إيقاع خطابى) من هذه
السفينة الراسية فى بحر قشتالة نرحل لمحاربة
أعداء الله. هذا سيف نهر دويروا الفضى لابد أن
يرانا قافلين فى رداء المجد، محاطين بالأسلاب
والأسرى، هذه السفينة هى التى اختارها الله
للقوف على أعلى مكان، هنا مفتاح النصر، هنا
طلسمه. أرى من حبل شراعها عالم الله اللانهائى
الذى أهداه إلينا، فلنأخذه، لأن القدر ينبسط
انبساط السماء فى أيدي الأقوياء، ويتضاءل
تضاءل الصل فى أيدي الضعفاء. النفير أيها
الجنود، اغتنوا بأموال الأعادي، والتحفوا بالمجد
وخلود الذكر، تحيون بقدر ما تقتحمون الموت، فإن
الذين يموتون يدفنون بملابسهم ودمائهم، دون أن
يفسلوا، يجيئون وأفواه جراحهم يوم القيامة ريحها
ريح المسك (فى نغمة ذاتية كأنه يخاطب نفسه)
كيف يسمع الصمت، لا أريد أن أسمع شيئاً، أى
شيئاً، أى شيء حتى جرساً، أو عصفوراً، أو رياحاً،
أريد أن أستمع إلى الصمت فحسب، الذى يسبق
الضجة، القعقة، فزع الحرب.

(ضجة حرب تتهيأ موسيقى من البلاط)

(غرفة من القصر).

- صـبـح :** هل قررت شيئاً يا حبي بالنسبة لتربية ولدى؟
- المنصور :** انس هذا يا أورورا، سأسهر على رعايته ورعايتك، فليضحك وليعب، وليصل - وليتسل مع حريمه.
- صـبـح :** لكنه مازال صبيّاً بالنسبة للنساء.
- المنصور :** من أجل المتعة ليس صغيراً جداً، يا حبي أنا. لكن من أجل التعاسة والموت نعم. إنه ولد ملكاً. فلندعه يكون على أفضل طريقة ممكنة، فليملك - وليتركنى - ليتركنا - نحكم، أن الحكم هو الوجه المر لعملة الحكم الذهبية.
- صـبـح :** لست واثقة يا أبا عامر.
- المنصور :** إن الملكية يا أورورا مصادفة : وأنت - كما كنت أمه تعرفين هذا أكثر من أى شخص آخر تدركين أن السلطة قدر، وهى قدرى، فدعيني أكمل هذه الرسالة.
- صـبـح :** ألا يبدو لك أن هذا تحد أن تبدأ فى بناء مدينة الزاهرة فى الجانب المقابل من قرطبة حيث توجد مدينة الزهراء مدينة الخليفة؟ أننى لست أفهمك أبداً يا أبا عامر.
- المنصور :** الذى يمارس الحكم عليه أن يتمتع بالاستقلال.
- صـبـح :** لكن الشعب، وأصحاب الدعاوى، والوزراء ودواوينهم والسفراء سيتركون مدينة الزهراء ماضين إليك.

المنصور : هذا أفضل بالنسبة لهشام، هكذا فى ذرعه أن

يستمتع فى هدوء بكل مدينته، كما أتمتع الآن بك.

صصبح : انتظر. فإن غالب أيضاً يشكو من تلك المدينة،

مرتئياً أن مدينة شىء كثير بالنسبة لحاجب فقط.

المنصور : بئس الحققد ميزاناً، إن حمى من الذين يدافعون

عنك، لكن حين تكونين فى المنحدر فقط.

صصبح : والجيش النظامى الذى كونته يا أبا عامر يهينه

وهو قائد الجيش الآخر.

المنصور : جيشه قد انتهى، لديه بعض فرق يابسة وهشة،

يسير على النظام القبلى، على حين انتهت القبائل

بواشجة الدم، حين يسفك الذهاب إلى الحرب

دمه، من اللازم أن يجدد كله وأن يصلح كله،

فالجنود المسرورون والمدفوع لهم جيداً لا يقهرون

يا أورورا، على أيضاً أن أصلح غالب.

(فى قمم أتينشه)

صوت غالب : محمد بن أبى عامر خائن بنى أمية، وإننى - غالب

- أتحداك أمام الله لأبرئ دينى، وشعبى والخليفة

الذى أسرته من حكمك المخادع (يخيم صخب

حرب على المنظر، ثم يهد)

المنصور : أطيحوا برأسه، وابتروا يده اليمنى، ولا تقربوا

خاتمه واحملوه فى صندوق إلى الزاهرة، وسلموه

إلى زوجتى، ابنته فإن الله هو المحيى وهو المميت

(يطرح الفيل من فوق مائدة الشطرنج).

(القصر الملكى)

صـبـح : يعرفونك فى قرطبة بالاسم الذى قلته لى يوماً ما :
أبو عامر المنصور.

المنصور : المنصور بالله منذ الآن فى كل الصلوات، وفى كل
المآذن، سيذكرون اسمى إثر اسم ولدك، وفى
تشريفات مجالسى سيكون اسمى مثل اسمه،
وسوف يقبل الأشراف يدى ويدعوننى مولانا.

صـبـح : (فى صوت خفيض) السيد ...

المنصور : الخليفة الشاب منذ الآن فصاعداً سيقصر على
أعمال الورع: لن يخرج من القصر (جلبة معركة)
على الآن أن انشغل بالقونت فى قشتالة، وبملك
بنبلونه اللذين انضمما إلى غالب ضدى (تأخذ قطع
الشطرنج البيضاء فى السقوط). سيما نكاس،
روطة، ليون، استرجه، ناخرا، بنبلونه، برشلونه،
قويمبرا، سان استييان دى غرماج، أوسما... (من
جديد فى القصر الملكى) سأتزوج ببنت ملك
بنبلونه ، شانجه غرسى الثانى.

صـبـح : لماذا ؟ أليس لديك ما يكفى من الذرية، ومن النساء ؟

المنصور : لا يسرى أبداً دم ملكى فى عروق الأبناء بما فيه
الكفاية (تشتد جلبة المعركة).

(خارج المسجد)

المنصور : أمر بتوسعة المسجد كي يتسع لكل المصلين، فإن
سكان قرطبة قد زادوا، وأطردت كذلك زيادة
المعتنقين للإسلام، وسوف يساعدنا النصارى
طوعاً أو كرهاً فى تحمل التكاليف.
(القصر الملكى)

المنصور : قد خلعت لقب وزير على ولدى عبد الرحمن.
صبح : إنه فى عامه الثامن فحسب.
المنصور : حين كان ولدك فى الحادية عشرة كان خليفة.
صبح : وزير يلقيه الشعب بشنجل.
المنصور : جده هو شانجه، ملك نابارا.
صبح : لكن أب ولدى كان خليفة، الأب والابن (ضجة
معركة)

المنصور : سأبنى بتيريسا بنت برمود الثانى ملك ليون.
صبح : لماذا ؟
المنصور : لأننى محتاج أن يدفع النصارى الجزية لى (تهوى
أخريات قطع الشطرنج البيضاء).
صبح : كفى . أشرع الآن فى استرجاع نظرى وذاكرتى،
سأتحدث مع ولدى.
المنصور : سأحدث معه أولاً، (يلقى بملكة الشطرنج السوداء
فى الفضاء) لا تخرج السيدة من حجراتها دون
إذن منى (يتوجه إليها) فى ذرى أن أقتل ولدك -
لن يخسر شيئاً - لكن، لماذا ؟ سأنتظر موته،

وسيكون أولادى اذنًا هم الخلفاء (يلقى بالملك الأسود).

صبح : ألم نكن كلنا آلات فى يدك يا منصور؟
المنصور : كنت حبيبة، وأنت الآن شريكة فى جريمة يستغنى عنها.

صبح : ألا تخشى أن تكون آلة فى يد أخرى أقوى منك؟
المنصور : هذا يقرره النصارى : يدعوننى سيف الله، معتقدين أننى المهدي الذى يجرى قبل نزول عيسى - جاء يجاهدكم فى الألف الأولى التى يزول العالم بزوالها، أن لديهم تقويمًا آخر غير تقويمنا.
صبح : احترس أن تنتهى أنت.

المنصور : على كل حال لقب السيد، الملك الكريم، سيدعوننى «صاحب الجلالة»، وأكون «الملك العظيم».

صبح : ستكون يا منصور إلى الأبد نموذجًا للقساوة.
المنصور : ليس الحكم أن تغمض العيون، وتسد منافذ الرحمة، الحكم - فى بساطة - لا بد أن يمارس، وأن تذلل له العوائق التى تجابهه. الحكم قدر صعب.

صبح : منافق !!

المنصور : ليس صحيحًا، محبرتى، وقلمى: كانا ما لدى وهو ما بقى فوق المائدة الآن. (فى الواقع، هوت كل قطع الشطرنج، يضع المنصور فى وسط المائدة محبرته القديمة. ضجة حرب) قشتالة، نابارا،

جليقيہ، حتى شانت يلقب دى كومبو ستیلا لا تقهر
حتى مجج النصارى، المأسورين عليهم أن يحملوا
أجراس كنائسهم، وكل أبواب مدينتهم إلى. أننى
فى حاجة إلى قناديل أضعتها فى الجزء الذى
أضفته للمسجد، أحتاج إلى خشب جاف لأغطى
السقوف (تهب ریح عبر بهو البرتقال، يدحرج قطع
الشطرنج، ترتجف عبر شوارع الدويلة الخالية فى
قلعة النسور، الحصن) لا أحد، لا أحد... بسبب
شراهة النسور منذ القدم امتدت تلك البطحاء،
من أجل نهم النسور ومن أجل النملة. آه . أيها
الوادى الأخضر الذى خُلق للهزائم (ميدان أسلحة،
ناظرا إلى أعلى من فوق برج المجد) ما أشد علو
السماء، وما أضالها الآن !!

(يهذى، يدعونه يسقط فوق النعش) احملونى إلى
مدينة سالم . (يظل يتمتم حول تغير المناظر)،
كفنونى فى ثوب قد غزلته بناتى من كتان اشتريته
من مالى الحلال: الذى بعته به أرضاً كان تركها
لى آبائى، وغطوا جسدى بالغبار الذى جمعته من
فوق دروعى فى المعركة خلال خمس وعشرين
سنة، كى يشفع التراب للتراب أمام الله. عبد الملك
يا ولدى أنت تخلفنى، فلا تثق بمن يخاف، واخش
من يخشى، وعاجله بالعقوبة، وخرج ذكورهم

باستخدامك، وألحف إناثهم جناحك ما استطعت،
ولا تخرج من قرطبة الجميلة، لكن حين يعتاص
أمر فحله بنفسك، وإن خفت الضعف فانتبذ
بخاصتك وغلمانك إلى بعض المعازل التي حصنتها
لك، واختبر غذك إن أنكرت يومك، وليحفظنا الله.
(الريح التي ما تزال تهب تقلب المحبرة فوق رقعة
الشطرنج يلوث المداد مربعات مائدة الشطرنج
الخالية).

(٤)

قصر أشبيلية

بـدرو: بعد قليل تبدأ الأزهار تفوح، بيد أنى سأكون
تحت الثرى. بعد قليل ستزهر الورود... ربما
تكون هى الورود ذاتها التى رأيتنا نصل إلى هنا
منذ خمس عشرة سنة، عندما لم يكد يتم أحد
منا. نحن الاثنين. عشرين ربيعاً... لعلها الورود
ذاتها التى رافقتك إلى حيث أنت الآن: إلى هذا
المكان الذى سكت فيه عن الكلام ثمانى حجج..
سيزدهر البستان عما قليل، لكن ليس لأجلى،
لأننى سأذهب باحثاً عنك، تاركاً الزهور والورود
إلى الضفّة الأخرى من الربيع... فى ليون
اكتشفت عينيك الواسعتين. قبلتهما لأول مرة فى
سأهاجون، وفى قرطبة أطبقتهما قائلة لى..

مـاريا: إنها بنية يابدرو، ماذا سيكون مصيرها؟
شـاب: ستكون ملكة على عرش عظيم مثلك ياماريا.

مـاريـا: فليجعلها الله على ضرب آخر .. لأننى أمام الملأ
لست سوى حظية الملك.

شـاب: سيحين الأوان الذى تتصبين فيه ملكة الملك.
بـدرو: جعلت الحرب كل شىء ضد حبنا، أمى، والنبلاء،
والمشير البوركيركى وقلق أخوتى، النغلاء،
والجوار مع فرنسا... لقد زوجونى بالقوة
بيلانكادى بوريون.. كانت ابنتنا بياتريس لا تكاد
تتم ثلاثة أشهر، وكنت أحت الخطى نحو بلد
الوليد والغبار. أو لم يكن الغبار. يحرق فى
عينى. أما أنت فقد بقيت فى مونتلبان مع
الصفيرة بين ذراعيك.

مـاريـا: الآن عرفت حظ حظية الملك دائماً.
شـاب: (فى ارتجافة) سيحين الأوان الذى تتصبين فيه زوجتى.
بـدرو: كان شيئاً كالمزاح.. زوجونى بيلانكادى بوريون. لم
أقل أنا ولا أحد غيرى إننى كنت متزوجاً .. كنت
جباناً. كنت جباناً معك إلى حد كبير يا ماريـا
باديا. ما اشتكيت أبداً، لقد عرفت كيف تنتزعين
البسمة من خلال الأسى.. جعلت الحرب كل
شىء ضد حبنا، أنتى كنت الأول يا ماريـا... لن
يتأخر الربيع كثيراً. لكن لن يعينى ذلك. فاليوم
أودع إلى الأبد هاته الحجرات، مخدعنا، العارى
مثل الأثاث مثل فؤادى... أودع هاته الغرف حيث

حاولنا بالقوة أن نكون سعداء. يافعين تمامًا،
ووحيدين تمامًا.. لقد هويتك أكثر من أى شيء
آخر فى هذا العالم. مثلما هويت قشتالة.. وبعد
الحب، ما يبغيه المحب هو أن يشهر حبه، لكن لم
يكن ممكناً. أن حبك وسره الذى اكتشفه كانا
يعذباني مثل قشتالة.... زوجونى بالقوة
بيلانكادى بوريون بينما كنت أقول: نعم. فى عقد
القران، كنت أفكر فى عينيك. الفاجرون الكبار
انريكى تراستمارا، وفديريك رئيس الرهبانية
الحرية فى شانت ياغب كانوا ييتسمون، هذا
المساء قد وقفت على السبب...

الشاعر الجوال: يقول الناس دون أن يعرفوا الحقيقة

إن الملكة حبلى

من الرئيس الحربى لرهبانية شانت ياغب

دون فديريك دى قشتالة

وآخرون يقولون إنها نفساء

بيلانكا: آه! من حظ الملكة السيئ

أسوأ من أخريات

زوجونى بالملك

لأجل كارثتى

فى ليلة زفافى

لم أر ليلة تماثلها.

بـدرو: أى حقد يكنه أولئك الفاجرون! لقد سلب منى
انريكى عندما أتم خمس عشرة سنة خطيبتى
الأولى. خوان مانويل فى هذا القصر وفديريك
حينما كانت يصحب من فرنسا الأميرة بلانكا
هتك عرضها... أنتى أشكره على نحو ما: ففى
اليوم الثانى من الزواج كنت بين ذراعى.. لكن
سلامنا لم يتم عامًا واحدًا. هنا يودع أحدنا
الآخر.

مـاريا: إن قشتالة تصيبنى بالسأم. لست أريد أن أظل
بينك وبين قشتالة. فأمام أعين الناس بلانكا هى
زوجتك.

شـاب: لكنك زوجتى أمام الله.

مـاريا: أن الله قد حول عينه عنى.. فلتنفصل يابدرو،
سأدع القصر: هذا الهواء، ووخامته.
هذا العبق الدائم الذى يفوح برائحة الزهر، وهذا
الظما الخالد..

شـاب: إننى أحبك يا ماريا وأنت تحبيننى

مـاريا: الملوك لديهم مشاغل جمّة. قشتالة حانقة بسببى.
أنك تخيب أملها، فارجع إليها.

شـاب: وأنت؟

مـاريا: سأختفى. فى دير أستوديو ثمة مكان شاغر ومن
هناك سأشاهد الأرض جرداء وهو منظر كدت

تاريخى فى طريقه إلى تغيير. ففى ريباد يكابا
تآمر الفاجرون، وحاجبى القديم، وكثيرون من
النبلاء، والمتظاهرون بصداقتى، وأخوة زوجتى
الجديدة أنفسهم على اجتياح قشتالة وعلى
خلى، وأولئك الذين أسديت إليهم من الفضل
لكى تهدأ الملكة قد باعونى.. أنهم ناسك
المأسورون. وأنت مهجورة ووحيدة، رفضك كان
دون جدوى. قبض الريح أساك وندامتى.. دون
قتاع يتواجه الطموح والحب! لقد كنت الملك،
وكنت أهواك.. تركت خوانا دى كاسترو متزوجة
أو لأنها زوجة، وعلى حافر الخيل مسرعاً ذهبت
أبحث عنك.

شباب: ما يجمعه الرب لن يفرقه الإنسان. أنا وأنت إلى
الأبد والآن سوف تدرى قشتالة. بالقوة. من الملك.

بـدرو: اليوم أنا أودع القصر هذا، لا أميز مسافاته
بدونك. عما قليل سيفوح العبق فى فراغ: لا أنت
ولا أنا سوف نحس بعيقه السكران الخفى.. أننى
أودع اليوم المكان الذى كنت أعوب إليه بعد
المعارك. ذلك المكان الذى كنت تعزيننى فيه عن
عداوات قشتالة، ذاك المكان الذى كنت تتسيننى
فيه أسماء هاتيك النساء العابرات وببسماتك
كنت تقصينهن عنى، يا صاحبتى ماريا دى باديا،

واليوم ملولاً مكروباً، أنثر ذكرياتي، لأنها كلها
تكرب حاشا ما تشاركينى منها...

ياله من نفق فظ، ياله من نفق طويل. أنظر فيما
حولى فلا أرى سوى خيانات، حتى أمى
خانتتى... بكسرة من الخبر تحملها أصبعى كنت
أستطيع أن أشبع كل رجالي الأوفياء فى
قشتالة... آه. حزين، حزين، فظيع ومحزن، أن
تكون ملكاً لأنك ولدت ملكاً، وأن تقيم العدالة
دون أن تدرى أين هى، وأن تعتبر أعداء المملكة
أعداء لك.. وأن تكابد دائماً الهواجس فى أن تدع
كل شىء، وأن تستسلم، وأن تترك كل شىء، وأن
يقصى عن الرأس، العرش الخانق، أن تعطل إلى
الراحة فى أحضان من تحب.. كم هو قاس ومعتم
ذلك النفق، مصير الكبار، لأن عليهم أن يكونوا
كباراً فوق كل شىء، لأن الصغار يريفون منهم تلك
العظمة.. خلال أعوام كثيرة كل شىء كان مرجل
غدر.. حرب فى قشتالة، حرب مع أراجون. قيد
اسمى خارجاً عن الكنيسة، استدعى الأجانب
لحل نزاعات عائلية. آه حزين، حزين.....
ترتامارا، العاهر يتطلع إلى عرش أسلافى،
يهدد راشيا النبلاء الذين يرون فى سوطهم.
لأن سلطانى كان عليه أن ينتزعنى من عينيك

يا ماريّا، وأن أحكم... أمامي، ليس إلا مواطنون
دون مدلول للطبقة ولا للفنى: النبلاء والشعب:
الكل سواء دون مدلول ديني، مسلمون، يهود،
نصارى.. كلهم يصنعون المملكة.. محو الامتيازات
المساواة، المساواة، إزاحة القناع عما يختفى وراء
الشفقة الزائفة، والحماسة الكاذبة... حزين
حزين.. أنى أرغت سدى أن أصنع بالرحمة ما
يجب صنعه بالحديد.

وأن أصل إلى النتيجة هي أننى على - فى قشتالة
- أن أراوح بين الاستبداد والفوضى. خداعات،
تزييفات شبكة من الشكوك حول النفس، لقد
علمونى الحق آه حزين حزين. عما قليل ستبث
أشجار البرتقال عبيرها، بيد أنى لن أراه، فى
النهاية سأغمض عيني عن هذا العالم الذى ما
فهمة جيداً..

أرجوحة من الخيانات وضعت العاهر فديريك
إلى جانبي - ظاهرياً فقط - ضد أخيه انريكي
الذى تحالفه. أراجون كنا فى هدنة، نتكلف سعادة
ما شعرت بها، استولى فديريك على خوميا
باسمى، ممزقاً بذلك الهدنة... وكنت أنا قد
شتتت جيوشى.. استدعيته إلى القصر.. كان
ينبغى الانتهاء... وفى هاته القاعة وثقت فى حكم

ابن عمى أمير أراجون.. وأنت يا ماريا، فى هذه
القاعة رأيت عينيك الجميلتين مفرورقتين
بالدموع. كنت أعبد عينيك.. والأمير بعد عشر
حجج تلقى ما يستحقه، عرض أن يقتل بيديه
فديريك.. كأنه لا يوجد جنود. حزين جد
حزين... كنت ألب هاته الليلة «الدامة» وصل
فديريك فى صحبة أخيك رئيس رهبانية قلعة
رياح المسلحة، كان الاثنان ينكتان. وأنا أمرت
صاحب الصولجان.

شباب: لكن يا لوبث اقبض على رئيس الرهبانية.
لوبث: أيهما ياسيدى، صاحب شانت يا قب أم صاحب
قلعة رياح؟

شباب: صاحب شانت يا قب، الأخ رئيس الرهبانية، من
الحتم أن.

بـدرو: كان فديريك ينظر إلى، فأطلق منى، ودافع عن
نفسه، لكن ذباب سيفه اشتبك فى دثار رهبانيته
الفضفاض..

شباب: أجهزوا وأنجزوا.

بـدرو: كان يثفادى الطعنات، ويتجنب الضربات، إلى أن
طرحه أرضا أحد المسددين... كان يسمع
نشيجك. بينما كانت فراشة ليلية تلوب بين
شظايا الخشب، وكانت الورود فاغمة. كان

الجوحارا... وكان فديريك يتململ... رأيت بركة
دمه، من دمي تنمو فوق المرمر.. حزين حزين دون
أن أودعك لئلا أنظر في عينيك، ركبت فرسى،
وهجرت أشبيلية.. كانت أشجار البرتقال آنئذ
تفوح. وسوف تفوح أيضاً.. لكنى سأذهب للبحث
عنك وراء عرف البرتقال والزهور في ضفة
الربيع الأخرى لماذا صنعت هذا ياماريا دى باديا.
كنت ذات خمس وعشرين سنة فقط، كنت رقيقة
وعذبة، كانت عيناك تضحكان قبل أن يضحك
ثفرك، كانتا تهدهدان رأسى مثل طفل صغير،
وقد نسيت الدم الذى كان ينزف من الجرح،
الأحلام الرديئة، الكوابيس التى كانت تغمر لياالى
مخاوفى.. أنك كنت شطر روحى، الشطر الأحب
من روحى، لماذا فعلت هذا؟ قولى لى. ذات يوم
من شهر يونيو استلقيت فى فراشك، شاحبة،
مرتجفة....

مـــــاريا: فليفتحوا الباب فالجو حار.

بـــــدرو: كان الباب مفتوحاً.

مـــــاريا: لاشئ يرى، لقد اكفهر الجو بسرعة.

بـــــدرو: كانت السماء صافية ، وشمس الظهيرة تتسلل،

وعبق الورود الفاغم.

مـــــاريا: لا شئ يرى..

وأن يكون القداس مما يكون للعاهلات، دفنت فى
مقبرة الملوك فى الكنيسة الكبرى، وأدى كاهن
طليلة طقوس جنازتك، وقد جثا النبلاء
أمامك... متأخرًا، متأخرًا، جد متأخر. آه،
متأخرًا جدًا.. منذ وفاتك، وكل شى ردىء: كأنك
لا تريد قبول التكريم... حرب مع أراجون.
حرب مع الفاجر، دم، مرة أخرى دم، موت ولدنا،
لماذا لم تقبلى أن تدعيه فى قشتالة... والبرتغال،
عادت بياتريس عازية حين رأت كوارث جمّة.
أننى وحيد يا ماريّا، لقد تركونى وحيدًا تمامًا،
احتل انريكى تراتا مارا مملكتى.

لوجرونيو، سالفاتيرا، بيتوريا، واضح أننى
لا أستطيع الدفاع عنها، ويطلبون منى أن أسلم
نابارا، لقد أعطيت أوامرى.. فى حالة الاضطراب
إلى الاستسلام. أن يسلموها إلى الفاجر:
قشتالة، ليكن من يكون ملكها. لا يجب أن
تتشعث...

اليوم أودع إلى الأبد هاته الغرف... ولتبق بناتنا
محصنات فى قرمونه، وأبنائى الذين رغبت فيهم،
لأرى إذا ما كانت الحياة متمسكة بى بعد أن
رحلت أنت، سأرحل إلى طليطلة إلى معركتى
الأخيرة، أدرى أننى سأموت هذا لا يعنينى، أدرى

أن أخى انريكى سيقبض على عنان
قشتالة. حسناً، حسناً، أنتى مجهد: ورجل
مجهد لن يكون على الإطلاق ملكاً صالحاً...
أفكر فى أن السيف يشحذ لأصرع هنا.

مرحباً، وأهلاً، دم بدم، وراحة فيما بعد، هذا كل
ما أبغيه... أطأ هاته الرخامات التى شاهدتتى
معك، أبارك هاته البلاطات، وتلك الفنون.
أبارك شمس فبراير.. أدع حبى هنا، حيث عما
قليل.. ودون خلاف.. تشرع أشجار البرتغال
تفهم.. وداعاً، أيها القصر حيث استقرت فيه
حياتى.. فى عذوبة.. أيتها الأبعاد التى سمعتتى
أضحك، أيتها المياه، الفوارة، الرقيقة، أيتها
الأشجار العوالى التى ستظل تورق زمناً طويلاً.
بعد قرون حين يجىء أناس آخرون يزورون هذا
القصر، يعرفون قصة حبى الحزينة.... وداعاً،
أيتها الجدران التى ضمتتى منذ أن كنت طفلاً
مثل طائر يتيماً....

إلى اللقاء الوشيك يا ماريا دى باديا، يا رفيقتى،
إلى اللقاء الوشيك جداً، لأننى سأبحث عنك.. فى
عنف.. بأسنانى وأظافرى، بشهوات رجل حديث
الزواج، فى أى مكان تكونين فيه، تحت زهور
البرتقال، وتحت الورود، فى الضفة الأخرى من
الربيع....

(٥)

الحمراء

مولاي الحسن : أمض. أيها المسيحي، وقل لمن أرسلك أن ملوك
غرنطة الذين كانوا يدفعون الجزية قد ماتوا،
ومن الآن فصاعداً لم يعودوا يصنعون الذهب
هنا، بل الحديد والسيوف من أجل الأعداء.

فرناندو : حسن: بما أنهم قد أرادوا هذا، فإنني سأنزع تلك
الرمانة حبة حبة.

أبو عبدالله : منذ عشر سنوات فقط، تحدى مولاي الحسن
(أبي) بهذه الصورة وبهذه الصورة أيضاً أجاب
فرنادو (الملك الكاثوليكي) على هذا التحدي،
هكذا بكلمات قلائل يتحدد مصير.. عشر سنوات
قصار تكفى ضد ثمانمائة سنة.

مريممة : في ثمانية قرون. لم تسترح كل من قشتالة
وأراجون.

أبو عبدالله : ونحن مع ذلك نترك أنفسنا يحملنا العبق شيئاً
فشيئاً.

مريمـة: لقد ولدنا هنا، هذه كانت أرضنا، هنا كنا نستمع
إلى الأغنية الأخيرة.

أبو عبدالله : نفرس الفن والجمال مثل الياسمين والآس، ولدى
شجر الرمان نطالع كتب العلم، ونقبل ثغر
المحبوبة: ثغرك يا مريمـة، مثل زهر الرمان لم
تفكر فى أنه من خارج البستان يهتئ القدر لنا
المدية واللحظة.. فقدنا حياتنا فى سبيل الرقة.

مريمـة : بسرعة فائقة بادلنا بخواذتنا عمائم مطرزة، وبسرعة
فائقة نسينا أن السلام لا تحققه إرادة واحدة..

الشاعر الجوال :

بينما كان يتجول الملك العربى

فى مدينة غرناطة

من باب البيرة

إلى باب الرملة

وصلته رسائل

تخبره بسقوط الحامة

رمى بالرسائل فى النار

وقتل الرسول.

أبو عبدالله آه أيتها الحامة، حامتى أنا، كانت هذه هى الحبة
الأولى من الرمانة (غرناطة) من هنا بدأ الألم...
ومنذ ذلك الحين تخلت أمى عائشة عن عرشها
وتاجها لثريا المسيحية الأسيرة إيزابل دى

سوليس. وقررت الانتقام.. كنت أنا سلاحها،
تصدت لأبى، ساندته بنو السراج، تدفق دم بنى
السراج أكثر من ارتفاع هذه النافورة.. كنت ابن
عشرين سنة، فى المساء كنت أسمع ارتطام
الصرخات فى أحياء الصناعة الشعبية مثل
الطيور العمياء.. وانبترت زهرة المحاربين
النصريين هذا المساء فى هذه القاعة...

الشاعر الجوال : (متهماً)

قتلت بنى السراج
كانوا زهرة غرناطة
وجمعت المنشقين
من قرطبة
لذا تستحق أيها الملك
أن تعانيهما عظيمًا
أن تفقد نفسك وعرشك
وأن تسقط غرناطة...

أبو عبد الله : لقد حبسنى أبى، وحبس السلطانة عائشة،
وببراقعها وبراقع وصيفاتها أجبرنى أن أتدلى من
البرج، وفى البيازين بايعنى من بقى من بنى
السراج ملكًا. حاربت أبى، نزف الدم شآبيب فى
الشوارع. كل شىء كان مذبحة كان فناء، كان
مهلكة، الجار ضد جاره، والقريب ضد قريبه...

الشاعر الجوال :

بنو الصغير، وبنو الجمل
وبنو الزرقى، وبنو عوض الله
وبنو غز، وبنو بورتليس
وبنو السراج، وبنو معزو
والفخارون، وبنو شيس
والفردقى، والفرار

كلهم يبكرون ليغرقوا الفجر فى الدم.

أبو عبدالله : أبى مولاي الحسن، وعمى الزغل لاذا بمالقه....

مريمه : إنتى أعبدك يا غرناطة، وأنت يا أبا عبدالله...

أبو عبدالله : أنت يا مريمه، وغرناطة الفضليان لدى، لذا
وددت أن أخالط فرحة الحمراء: حاولت أن أجعل
من اسمى (أبو عبدالله الصغير) اسمًا كبيرًا،
حاربت النصارى...

الشاعر الجوال :

من باب البيرة هذا
زحف الجيش اللهام
كم فيه من وجوه المسلمين
كم فيه من كمت الخيول
كم فيه من رماح مشرعة
كم فيه من بيض الصفائح
كم فيه من بزة العسكر الخضراء

كم فيه من جباب قرمزية
كم فيه من ريش وأناقة
كم فيه من فحول الخيول
كم فيه من حو الأحذية
كم فيه من أعصبة توشحه
كم فيه من مهاميز ذهبية
كم فيه من ركاب فضى
كان الجميع صناديد
عركوا رعى المعارك
وفى قلب هذه الكتيبة الجرارة
يمضى ملك غرناطة الصغير
ترمقه المسلمات من بروج الحمراء
يلبس عمامة مطرزة
فيها سطر يقول:
«طريقى الأثير هو الحب»
يربط القلنسوة والجبهة
شال أخضر
وبين ريشتين ذهبيتين
ريشة بيضاء مثبتة
فيها سطر يقول:
«نفس واحدة فى جسدين»،
شال وعباءة

لونهما بنفسجى
بتطريز يقول:
«أنت شمس آمالى».
ناظرًا إلى سيدة مسلمة
فى أبراج الحمراء
هى أمه الملكة المسلمة
تحدثه هكذا:
«ليحفظك الله يا ولدى
وليحرسك النبى محمد».
مريمه: لم يفدك شيئاً، كنت لا تزال تنظر إلى من باب
البيرة، وعند الخروج مرق ثعلب من أمامك،
أطرحت النذير الشؤم يا أبا عبد الله، وغدوت
أسيراً فى لوشه...

الشاعر الجوال : (رسول)

لقد خسر الملك الصغير
وانقض من حوله من كانوا معه
لم يهرب أحد:
فهم: أسير، وقتيل، وجريح
كانوا جموعاً غفيرة
وأنا وحدى الذى تزودت
للإتيان بمحنة جديدة
من البلية العظمى التى حدثت.

مريمه : بقيت غرناطة بلانور، بلانور، والملكة عائشة،
بلانور، وأنا...

الشاعر الجوال :

يكون ملكهم الصالح
الحبيب العزيز
يتظلمون إلى النبي محمد
الذي تولى عنه
كل جواهره ترخص
في سبيل افتدائه:

حتى حلى نسائه وخلا خيلهن
وأمشاظهن من الذهب الإبريز

الـراوى : (فى حياذ يقاطع الشاعر) هذه هى شروط
الفداء: يعلن أن أبا عبدالله معاهد وفى
للملكين الكاثوليكين، يدفع جزية سنوية قدرها
اثنا عشر ألفاً من الدوبلة الذهبية، ويفك أسر
أربعمائة أسير مسيحي، ويستجيب بصورة
دائمة حين يطلب منه أن تمر فى أراضيه
قوات تذهب لقتال أبيه مولاي الحسن أو
عمه الزغل، وأن يحضر إلى بلاط الملكين
الكاثوليكين حين يستدعى.. وأن يسلم ابنه
وأبناء الأمراء المسلمين رهينة لتوكيد
الميثاق.

أبو عبدالله : قدر حزين أن تكون مأمورًا،، لقد غدوت الآن
سلاح النصارى ضد عمى الزغل - كما كنت قبل
ذلك سلاح أمى ضد مولاي الحسن...:

مريمه : أنا وأمك استقبلناك فى البيازين... واستغل أبوك
هزيمتك، فاستقر فى الحمراء.. بينما كانت
الجلبة والطبول تحمس بنى السراج، وكنت أفكر
فى ولدنا وهو فى قصر قرطبة بعيد جدا، يبسط
ذراعيه فى الظلام باحثًا عن أمه... دون جدوى.

أبو عبدالله : وأنا لكى أحقن دم شعبى النازف قبلت المشاركة،
ونأيت عن المرية، وللمرة الأولى انشطرت مملكة
غرناطة شطرين، واقتلع الشجر...

الشاعر الجوال :

ألورا، أيتها القرية
الواقعة بجانب النهر
لقد اقترب منك السابق
فى أحد صباحات الأحد
ترين مسلمين ومسلمات
هاربين إلى الحصون
المسلمات يحملن ثيابًا
والمسلمون يحملون دقيقًا وقمحًا
والموريسكيون الصغار يحملون
الزبيب والتين.

أبو عبد الله : ألورا . شتيل، قوين، قرطمه، رنده.. تنازل مولاي
الحسن عن العرش يائساً من عمى الزغل.

مريمه : كان يعيش الزغل فى الحمراء، ونحن مرة أخرى
فى البيازين...

أبو عبد الله : والآن. غرناطة، التى كانت مشطورة شطرين.
مريمه : كل مساء، ناظرا إياه، كنت تحلم أن تعود إلى هذا
القصر.

الشاعر الجوال :

رحل الملك من قرطبة
وكذلك ملكة قشتالة
فى عام ستة وثمانين
وأربعمائة وألف
ومعه زهرة الممالك
وكوكبة عظيمة من الفرسان
فى طريقهم إلى لوشة
يريدون الاقتراب منها..

مريمه : ولدت فى لوشة.. المطار، والقائد، وأبى تعود أن يقول
لى ضاحكاً حينما كان يهز الرياحين: «لن تخرجى من
هنا إلا لكى يناديك بهو الأسود: يا سلطانتى»...

أبو عبد الله : هذا ما حدث.

مريمه : بيد أنى لم أستطع أبدا العودة إلى لوشة.. ولا
إلى ألورا، ولا إلى موقلين...

أبو عبد الله : ولا إلى جبل الثلج، ولا إلى قلهمره...

مريمه : ولا إلى سالارا، ولا إلى بلش...

أبو عبد الله : حينما ذاع فى بلش نبأ هزيمة الزغل، قادنى

أهل غرناطة منتصراً من البيازين إلى

الحمراء، وعادت غرناطة لى مرة أخرى.

مريمه : بيد أنك لم تستطع العودة أبداً إلى مالقة يا أبا

عبد الله، العودة أبداً إلى مالقة، كل يوم يتضاءل عالمنا..

الشاعر الجوال :

لقد صارت مالقة ضيقة جداً

فى تصدع وانحيار

منهارة فى كل جوانبها

دون أى دفاع

«يرجوك حامد الصغير

مع هذه الزمرة

أن تسلمى هذه المدينة

فليس لديها أى دفاع

تأملى كيف قتل المسيحى

هذا العدد من المحاربين

ألا ترين أن الباقين

يسلبهم الجوع والحياة

لقد خارت قوى غرناطة

ولم يعد ناسها كعادتهم

فروسية وكبرياء

لأن ملكهم قد قتل»

أبو عبدالله : أجل، فى القريب العاجل، مهاد محدود من
الأرض سيكفى...

الـراوى : غزيت مالقة، انشطرت المملكة النصرية إلى ثلاث
ممالك: يسطر ملوك قشتالة على جزئها الغربى
من ألورا وموقلين حتى بلش، ويسيطر الزغل على
المرية وبسطه ووادى آشى والبشارات حتى المنقر:
وأبو عبدالله الملك الصغير يزهو بمدينة غرناطة
وغوطتها وجبلها، ظلال ملك.

أبو عبدالله : لقد استخدمنى الملوك الكاثوليك لإضعاف العدو
المشترك، وفى وسعهم الآن أن يشرعوا فى
الحصاد.

الشاعر الجوال :

على بسطه يشرف فرناندو
فى يوم الاثنين بعد الغداء
كان يتملى الحوانيت الفنية
التي فى مملكته.

يتملى البساتين الفسيحة
يتملى الأرباض
يتملى المحجة العظمى
فى المدينة

يتملى الأبراج الكثيرة
التي تستعصى على الحصر
على بسطه يشرف فرناندو
وسيظل فى داخلها .

أبو عبدالله : (فى بطء) بورشينا، المرية، وادى آشى،
سالوبرنينا، المنقر...

فرناندو : ها نحن نتزع حبات هذه الرمانة حبة حبة
(وقفة) ..

أبو عبدالله : ها نحن وحيدان، يا مريمة، لقد انتهى والدى،
وانتهى الزغل، وليس لمدينة غرناطة سوى ملك
واحد .

مريمة : حقيقة نحن وحيدان يا أبا عبدالله، نحن
وحيدان، لا أحد، لا شيء .

الشاعر الجوال : (رسول مقاطعاً) :

شئ جديد أجيتك به يا سيدى
سفارة سيئة جداً

من نهر شنيل البارد

يقدم أناس كثيرون مسلحون :

راياتهم منشورة

يسيرون على إيقاع الحرب :

وثمة راية ذهبية

بها صليب فضى

ويقسمون جميعاً
على الصورة المرسومة
ألا يخرجوا من الغوطة
إلا إذا غنموا غرناطة

مـرـيـمة :

أنشودة النصارى
تسمع من الحمراء
وصهيل خيولهم
يؤرق السلطانات...

الشاعر الجوال :

يا إلهى كم تبدو جميلة
فى غوطة غرناطة:
كل أسوار المباني
كل القلاع المزخرفة
قبو دائرى
تحيط بك كلها وتستحم
لقد أنشأك الملك دون فرناندو
وعاونه الملكة إيزابل
وفرسان مسيحيون
قطعوا أشجار الغوطة
وفوق الجانب الأيسر
يضعون صليباً قرمزية.

إيزابيل : لقد حدثتني يا كولومبوس عن الهند الشرقية،
عن ثيانجو، عن قطاي، حدثتني عن الفراديس
النائية جداً .. اصغ إلى : خلال ما يقرب من
ثمانمائة سنة تتحدر قشتالة تجاه الجنوب بوصلة
بوصلة مبهورة بالشمس، وفتتها، بخضرة
الخصوبة، تضغط على أسنانها، تغمض عيونها،
عانت ما يقرب من ثمانمائة سنة في طريقها إلى
هذا الفردوس القريب الذي سلبوه منها، .. إنك
تحدث عن عوالم أخرى .. لا أدرى هل أنا ملكة
حقاً، أم لست سوى ربة بيت تعرف حساباتها
بالعد على الأصابع، تتفق ما تستطيع، وتراجع
المواعيد، وتهين الراحة لرجالها بعد العمل...؟
اصغ إلى يا كولومبوس: قشتالة متطلعة لا يرونها
بيتها، تريده فقط للعودة إليه أحياناً لكي تستريح،
ولذا فهي في حاجة إلى من يرعاه لها، أنتى أنا
التي أرى لقشتالة بيتها ... عبر ما يقرب من
ثمانمائة سنة حلمنا «إسبانيا» .. لكي تكون
خريطة التي تشبه أهاب الثور كلها لنا، فقط،
ينقصنا ثمرة صغيرة أحلى ثمرة، ولعلها زهرة
فحسب: أجمل الزهرات، وها نحن نلمسها
بأصابعنا .. أنت تتحدث عن الهند الشرقية، عن
معاهدات، عن مال، .. ليس لدى يا كولومبوس.

فى هذا الوقت. فرحتى غامرة جداً أن أرى
غرناطة أمامى، سأعطيك جواهرى لتشرع فى
السفر، حتى جواهر ليس عندى، إنها مخزونة فى
بلنسية، رهينة نظير ديون سالفة.. ليس لدى
شئ: سوى تلك الفرحة أن أعرف أن أسلافى
يهتزون طرباً فى قبورهم، لأن الاسترداد ـ طريق
الصليب الطويل ـ فى طريقه إلى التمام.. قشتالة
مثل هاتيك اللبؤات العجائز التى تنام وبين
مخالبها بذرة بخور، تشمه، تتسلى به عن
الإزعاجات، عن أيام مؤلمة.. انظريا كولومبوس
كيف تلمع بذرة البخور هذه!

الشاعر الجوال :

ما هذه الحصون الباذجة المتألئة
يا سيدى، أنها الحمراء
والآخر المسجد
والأخريات الدشارات
العجيبة الصنع
والأخرى جنة العريف
البستان العديم المثال
والأخرى القباب الحمراء
حصون عظيمة.

فرناندو : إذا رعيت فى الزواج منى يا غرناطة

فإنتى أمنحك قرطبة وأشبيلية
صداقاً، وحلوى.

إيزابيل : لا تحدثوا امرأة جاءها المخباض عن شيء آخر:
لا تمزجوا رعايتها بشيء آخر، قشتالة تتمخض،
ستأتى أزمنة أخرى، حين يهدأ بيتها من جديد
يا كولومبوس حينئذ نتحدث عن تيبانجو، وقطاي،
اليوم قطاي قشتالة قريبة جداً، هنا منشورة فى
الشمس، متكئة برأسها الجميل على وسادة من
جليد.. إيزابيل ربة بيت قشتالة تطلب منك
الانتظار.

الشاعر الجوال :

أنشودة النصارى

تسمع من الحمراء

وصهيل خيولهم

يؤرق السلطانات

مريمـة : إنهم يقتربون، ها هم يقتربون.. الألم يطرق بيده
الصخرية بوابة النبيذ.

أبو عبد الله : فى بوابة العدالة، يد الألم تتدلى إلى المفتاح،
وتفتح قصورى شيئاً فشيئاً.. ماذا صنعنا؟ «لا
غالب إلا الله، لا غالب إلا الله». هل كان كذباً ما
حدثونا به؟ كنا نحن أيضاً نحلم: «إسبانيا» خلال
ثمانية قرون كنا نهتف أيضاً باسم «إسبانيا» وكل

يوم صوتنا ينخفض .. نجمة النصريين يأخذ
وجهها فى الأفول، شمس تشرع فى طمسك أيتها
النجوم الشاردة التى تسطرين القدر الأسيف لمن
ينهزم..

مريمـة : إنهم يقتربون . ها هم يقتربون..

أبو عبد الله : أية ملكات أخريات تتكى تماثيلها النصفية فى
شرفة الواجهة؟ أية أقدام أخرى ذوات أحذية من
طرز متعددة تطأ هاتيك القاعات؟ أية آذان هيئت
فقط على طلقات البارود سوف تستمع إلى
موسيقى الحب من نوافيرنا؟ لأجل من سوف
ينمو النسرين والآس؟ الأقوياء ليسوا فى حاجة
إلى كل هذه الرقائق.. سوف تدوسها سنابك
خيولهم، وسوف ينمو العوسج...

مريمـة : فوق قبة أبى الحسن سيضعون مئزر ملكة اسمها
صعب، لن يكون اسمها عائشة، ولا ثريا...

أبو عبد الله : فوق الشعار الوحيد لبنى الأحمر «لا غالب إلا..
الله» يكتبون شعارهم هم، وينقشون الحرف الأول
من اسم الملك والملكة الفاء والهمزة (فرناندو
وايزابل).. وفوق ألوان زليجنا سيرسمون نيرهم
وكنانة سهامهم. الأقوياء ليسوا فى حاجة إلى
جماليات كثيرة: حسبهم القوة.

مريمـة : فى طاقات مياخزنا يصنعون محارب قديسهم..

أبو عبدالله : وفى قصر العدالة يشيدون مصلاهم...

مريم : لا غالب إلا الله.

أبو عبدالله : وفى أحواض الوضوء يضعون ماء التعميد.

مريم : إنهم يقتربون، ها هم يقتربون.. وفى الحمامات

الساخنة حيث تسمع موسيقى المعازف الخفية،

وحيث تتكاسل الأجساد الرائعة الجمال، وحيث

البخار يعبث عبث المثرز الشفيف، حيث تطل

الشمس باسمه دون أن تدخل.. فى الحمامات

الساخنة يخزنون البارود والقمح.

أبو عبدالله : حيث كنا سعداء، نغنى، سيكونون هم أقوياء

فقط.

مريم : حيث كنا أقوياء، ولطفاء، سيضعون هم

حجارتهم.

أبو عبدالله : وعلى الكتب التى فهمنا منها تاريخ البشر يضعون

هم النفط عليها.

مريم : وفى الأماكن التى أحببنا فيها الحياة، سيمضون

فيها للموت.

أبو عبدالله : سيجلبون أزهارًا مختلفة، لغة أخرى، عيونا

أخرى..

مريم : طريقة غريبة للحب، ولكون المرأة محبوبية.

أبو عبدالله : وفى الأماكن التى يستريح فيها رفات أسلافنا..

مريم : لا غالب إلا الله.

أبو عبدالله : ستنمو أعشاب مهجورة، سيدنس نبات النار،
النصب المرمرية التي ما قبلها غير الشمس
والمطر، ستسقى القاعة التي دفن فيها رفات
الملوك.

مريم : (بصوت خفيض) لا غالب إلا الله.
أبو عبدالله : فى أرضنا هذه، المثمرة، المزروعة، السعيدة،
سيدفنون موتاهم.. لقد تغير صاحب العالم إلى
الأبد..

مريم : سيشهد المرمر الهرم . فى دهشة . مشاهد لم تر
قط..

أبو عبدالله : لكن لن يكون لنا نصيب منها.
مريم : هنيئاً للزليج، ولخنزير بطائن السقوف الأشقر،
لأنها ستظل فى مكانها، بينما نحن نضوى شوقاً
إليها.

أبو عبدالله : خدعنا الأس والعوسج، خدعنى قلب غرناطة..
إيزابل : سيفلق درع قشتالة بثكنة عظيمة، بقلب غرناطة..
أصوات : لقد سقطت غرناطة فى يد دون فرناندو، ودونيا
إيزابل، لقد غدت غرناطة لقشتالة!!

إيزابل : غرناطة لنا، أين كولومبوس؟ لقد حان الوقت
للحديث عن الهند الشرقية.

صوت : إنه مضى يا سيدتى، فى طريقه إلى فرنسا،
ليعرض مشروعه على ملك الفرنسيين.

إيزابيل : نادوه، اذهبوا فى طلبه وائتوا به، ستقوم قشتالة
بتحقيق هذه الأحلام، أمام عتبة الفردوس،
ستوقع قشتالة معاهداتها.

الشاعر الجوال :

فى مدينة غرناطة
يصيحون صيحات هائلة
البعض ينادى محمداً
وآخرون ينادون بالتثليث
تدخل الصلبان من جانب
ويخرج القرآن من جانب آخر
حيث كانت تُسمع سور قبل ذلك
يُسمع صليل الأجراس
يُسمع «الحمد لله فى الأعالي»
بعد إقامة الصلوات الخمس
الأبراج ليست على هيئة الهلال
ويشاهد تغيير فى القلاع
ملك يدخل سعيداً
وآخر يمضى باكياً
أبو عبدالله : أيتها البيازين الباذخة، بيازينى.

آه، لقيسارىتى
حمرائى، دشاراتى
مسجدى الجامع

حماماتي، بساتيني، نهري
حيث تعودت أن أستريح..
من الذي أبعدك عني
حيث لن أراك أبداً؟
حتى هذه اللحظة أراك
ومن بعيد يا مدينتي
عاجلاً لن أراك
لأنني سأقصى عنك
عجباً يا عجلة الحظ
مجنون من يثق فيك
بالأمس كنت ملكاً مشهوراً
واليوم ليس في يدي شيء
عمائشة : ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعفاً
لم تحافظ عليه مثل الرجال
الشاعر الجوال :

برانس، لا عمائم
لن يقبل المسلمون بمسلمين آخرين
برانس، لا عمائم
حمراء، بنفسجية، أو خضراء
لا مرط، لا عباءة
لا مآزر، لا أكسية
لا تقام مبارزات.

ولا تخضب السواعد الفتية بالحناء
لا يسعون إلى سيداتهم
فى الحضور والغياب
ولا غيرة ملحة
ولا عطايا حب
برانس، لا عمائم
حمراء، بنفسجية، أو خضراء
فالجميع يلبس السواد
يلبسون ثياباً برتقالية
يرون أن القدرة الإلهية
هم عنها مبعدون...

أبو عبد الله : كل شىء يصل إلى ذروته العليا، يبدأ فى
الانحدار، لا تتخلوا عن سحر الحياة، وحب
الحياة

أين الملوك ذوو التيجان من يمن
وأين منهم أكاليل وتيجان
وصار ما كان من ملك ومن ملك
كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقائله
وأم كسرى فما آواه أيوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب
يومًا، ولا ملك الدنيا سليمان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له
هوى له أحد، وانهد ثهالان
فاسأل بنفسية ما شأن مرسية
وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم
من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص، وما تحويه من نزه
ونهرها العذب فياض وملآن
حتى غرناطة التي بقيت لؤلؤة فى جبين
الإسلام، حيث يعبد الله.. لا غالب إلا الله. فإنكم
ترونها الآن.. هل ثمة وطن لإنسان يفقد
غرناطة.. البكاء، البكاء، لأن أى شيء إذا هوى،
فإنما يهوى إلى مكان سحيق..

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة المترجم	٧
ابن رشد	١٥
الزهراء	٢٥
المنصور بن أبى عامر	٥٣
قصر أشبيلية	٧٧
الحمراء	٩٣
الفهرس	١١٩

رقم الإيداع والترقيم الدولي

٢٠٠٥ / ١٨٦٣٠

I.S.B.N 977 - 01- 9953 - 2



إن القراءة كانت ولا تزال وسوف
تبقى، سيدة مصادر المعرفة،
ومبعث الإلهام والرؤية الواضحة ..
وعلى الرغم من ظهور مصادر
حديثه للمعرفة، وبرغم جاذبيتها
ومنافستها القوية للقراءة، فإننى
مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى
مفتاح التنمية البشرية، والأسلوب
الأمثل للتعلّم، فهى وعاء القيم
وحافظة التراث، وحاملة المبادئ
الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله.

سوزان مبارك

Bibliotheca Alexandrina



0707320

2.64
462kh
005